نبيل جديد

هل أنت بخير؟

وقصص أخرى

اللاذقية 1952

وحسب طبيعة عمل والده تنقل في معظم مدن وبلدات سوريا؛ عاش معهم واختلط بهم وأخذ منهم، ثم أكمل هو بعمله جولته الحياتية في بعض ماتبقى من مدن.

رافقه عشق «المجلات المصورة» منذ نعومة أظفاره، فكانت له تجربة مبكرة مع الرسم، ثم لامس الشعر، وكان للتصوير الفوتوغرافي حيزاً في حياته أوصله لاحترافه، لكنه في النهاية استقر على القصة القصيرة.

لفت انتباه الوسط الثقافي في سبعينيات القرن الماضي كرائد من رواد «القصة القصيرة جدا».

صدرت له المجموعات القصصية المطبوعة التالية: الرقص فوق الأسطحة (1977)/ الأولاد (1982)/ القوزلي (1985)

كما له مجموعة جاهزة للطبع بعنوان «الخوف».

أسس خلال 2014 «منتدى البناء الثقافي» كفاعلية ثقافية أثبتت كفاءتها في جذب جمهور واسع في دمشق. واستمرت في تقديم نشاطات سينمائية وإبداعية (أمسيات أدبية ومعارض تشكيلية وندوات ثقافية) واستمر المنتدى لعام تقريباً ليتحول بعد ذلك بسبب الهجرة الى صفحة افتراضية (أملاً في انطلاقة واقعية جديدة).

اتخذ في السنوات المنصرمة مساراً سياسياً، فكان عضواً مؤسساً لـ«تيار بناء الدولة السورية» وهو تيار ينادي بالتغيير السياسي والاجتماعي والثقافي، وبإطلاق الحريات العامة والفردية وبناء سوريا حديثة علمانية تعددية انتقالية.

كتاب
البيت العربي النمساوي
للثقافة والفنون

نبيل جديد

هل أنت بخير؟

وقصص أخرى

كتاب
البيت العربي النمساوي
للثقافة والفنون

نبيل جديد
هل أنت بخير؟
وقصص أخرى

الطبعة الأولى
2017

كتاب
البيت العربي النمساوي
للثقافة والفنون

الغلاف والإعداد الفني
محمد عزام

حقوق الطبع محفوظة، ولا يسمح بإعادة
إصدارها أو نقلها على أي شكل من الوسائط
دون إذن خطي من الناشر

(1)

هل أنت بخير؟؟

سألته وليفته، ويقينها ينحدر بها نحو الأسوأ، بكفها المرتجفة اقتربت تتحسس جبهته؛ لم تكن الملامسة لتثير مشاعر اللحظة الراهنة، بل أقصى ماتفعله: إحياء ذكريات ليالي الصبا العنيفة؛ ولم يكن التحام الجسدين المهدودين ليتم ألا ليتكئ كلاهما على كليهما، وينهضان متابعين زحف الإقدام عبر أجواء المنزل الذي يبدو فسيحا ككل الأمكنة، ويبدو الزمن بطيئا يتقافز بين لحظات الإغفاء، ومن لحظة إغفاء إلى أخرى حياة قصيرة، يقضي بها أحدهما حاجة، ويعرف الآخر وقت الشاي، أو اللقمة الخفيفة، فيقوم أيهما أسبق الى تحضير ذلك، حتى فتح النوافذ، أو إرخاء الستائر حسب موقع بقعة الشمس المتحركة على أرضيات الغرف، أو مسح الغبار ومشوار التسوق اليومي؛ كلها أعمال مقسومة بحكم العادة بينهما، لكن كثيرا مايتم تجاوز ذلك الروتين، فينفذ الثاني أجزاء من مهام الآخر، مرسلا رسالة صامتة تبعث الرضا في النفسين الكليلتين اللتين افتقرتا للغة حتى اختفت الحاجة الى تعابير اجتماعية: كصباح الخير أو كيف الصحة، وتم

استبدال ذلك بابتسامة ذابلة مع نحنحة خفيفة أو سعال متقطع؛ وقد يتم قطع الصمت أحيانا بتعبير: كيف ظهرك اليوم؟ أو تنتهك حرمة الصباح مع فتح النوافذ بقولة: الطقس جميل ورائع... مع أن الخارج قد يكون مشمسا، غائما، بل ربما ماطرا، فيقفان معا الى فتحة الضوء يرقبان تشكلات الغيوم وتحولاتها، خيوط الماء المتساقطة، أو السماء الزرقاء المرحة.

كما النوم تتحول اليقظة الى بركة من الماضي: ذكريات اللقاء والزواج والولادة والتربية وأخطاء الأطفال المحببة، وضحكات الشباب في اجتماعات العائلة، وأعراس الأولاد المتشابهة ثم لحظات هجراتهم المتتالية، والأحفاد البعيدين الذين لم تتبلور ملامحهم إلا كنسخ لآبائهم.. يجري كل هذا دون كلام، فقد تحدثا بذات المواضيع مرارا، إلا أن الصمت لايخفي الحالة، فكثيرا ماتلتقي العيون لتعكس حزنا أو كآبة أو فرحا، يعرف من خلالها الآخر موقع خليله على شريط الزمن، فيشاركه المشاعر والذكريات التي من الممكن أن تتسع للصداقات القديمة، التي لم تعد ذات مغزى، فمن لم يمت بات عاجزا عن اللقاء.

هل أنت بخير؟

سألته عندما طالت به قيلولته أكثر من المعتاد، اصطنعت ضجة بإسقاط الكأس المعدني مصدرا رنينا ودحرجة ضاجة، لإعادة الوليف الى برنامجه اليومي، ثم أحبت أن تذكره بموعد الدواء، بينما في قرارتها أدركت عبث محاولاتها، فتمددت جواره، مسحت جبهته، لسعتها برودة الوجه، لدغها غبار يعلو القسمات؛ جانبته، حضنته...

■■

(2)

ابن حرام

داهم القرية خبر اختفاء حصان كامل أغا، فانتشر الرجال والفتيان بحثا عنه في السهلة والبقيعة والحرشة وخلف الأكمات وفي المنخفضات، مع نداءات الرجاء والتشجيع وأوامر التعنيف والشتم... وبمرور الساعات كان الغضب في صدر كامل أغا ينسكب قلقا في نفوس أهل القرية، فراحت التخمينات تتعدد وتتوزع بحثا عن متهم يتحمل عبء الخطيئة، فكان اسم "حميدان" يترأس كل قوائم الاحتمالات، لأن الخيول لا تسلم أعنتها دون حمحمة احتجاج إلا له.... بيد أن العثور على الحصان في صبيحة اليوم التالي وقد تم إخصاؤه، أسقط حميدان من لوائح الاتهام لما عرف عنه من عشق للخيول وولع بها وتدريبها ومرافقتها، واستعداده لغفران كل الخطايا مقابل ساعة مع حصان يلاعبه وينظفه ويسوسه، بالإضافة الى معرفة الجميع ـ بمن فيهم كامل أغا ـ أن حميدان غادر القرية منذ يومين ولا أحد يخمن عودته، إذ كان كثيرا ما يختفي لأيام أو أشهر متتاليات، وباعتياد أهل القرية ذلك امتنعوا عن الاستفسار، وتركوا للآغا تلك المهمة، الذي مل بدوره، وبات يكتفي بمواويله العذبة خلال السهرات الليلية (لتحديد تواجده في القرية)، فحميدان مطرب القرية وشاعرها، بغيابه تفقد المساجلات بريقها خاصة

إذا تواجد شاعر مغن من قرية أخرى، فيفتقد الجميع حميدان، كونه الوحيد القادر على تبييض وجوههم... حتى إن بعضهم خمن هجراته القصيرة: بلجوئه الى الغناء المأجور بعيدا عن قريته، لأنه الوحيد الذي ترك أعمال الزراعة، منذ سيطر الأغا على أرضه، استيفاء لديون متراكمة على والده، فصرت لا تراه في الطرقات إلا وهو يحمل على كتفه جراب الدبق أو الربابة، ويمسك بيده غصن حورة غضا وقد عراه من الأوراق محتفظا بواحدة على ذؤابته، يلوح بالغصن الطري: ملقيا السلام (الله يعطيكم العافية، أو يهش به الذباب لدى اقتعاده حجرا يشوي ما اصطاد... أو تراه متطوعا في بعض أعمال القرية الجماعية، غير طامع إلا بوجبة تتخلل عمله في حصاد القمح، أو دحل الأسطحة، والمشاركة بـ(السليقة)، وقشر القمح، وترميم جدار حاكورة، أو عجن الطينة مع القش بأقدامه العارية، لتقوم النسوة بتليس الجدران، وهن يناكدنه ليدفعنه الى موال أو قصيدة غزل بصبية منهن تتباهى بكلماتها كأنها شهادة فنان حيادي لا غرض له إلا الجمال، فالكل يعرف: عزوفه المعلن عن الزواج، منذ فوجئ بحبيبته وقد أضحت الزوجة الثانية لكامل أغا، تلك الحادثة التي كانت السبب في انتقال كراهية حميدان للأغا الى المكاشفة والصراع، ثم انتهت بهروبه من القرية لأكثر من عام، وبغيابه هذا تعززت تسمية "ابن حرام" عنه لأنه كما قال الأغا: بدون أصل، نسي الخبز والملح وغاب.. ذلك اللقب الذي لم يجرؤ أحد على مناداته به إلا عندما كان صغيرا طري العود، أما فيما بعد، فصار الاسم يتسرب همسا بين الفتيات تعبيرا عن الإعجاب الشديد بصوته والنغمات التي يؤديها، أو يلفظه الشباب خافتا بحسد: "ابن حرام" وهو يبزهم جميعا في مسابقات رمي "القاموع" ورفع "العرجلينة" أو

"المغالبة"، بينما عزا كبار القرية ذلك اللقب الى فوضى الرضاعة المختلطة الذي أدى الى ظلال شكوك حول زواج أبويه، أما حميدان كان يخبئ في رأسه صورة والدته التي ماتت على حضنه، وهو بعد طفل صغير، بينما تبوح: آلامها وكامل آغا يغتصبها وسط صرخاتها التي أغرقت القرية، دون أن تأتيها نجدة، فقدت عقلها، ثم دفعت زوجها الى الموت باستسلام سريع بعد تشكيكها المتواتر برجولته؛ تلك الحكاية الأخيرة من حكايا الأم الليلية ـ والتي لم يفهمها الطفل آنذاك ـ كانت تومض في ذهنه كلما كبر، وتتوضح معانيها مع اكتمال رجولته، فيشتعل رأسه، ويفقد السيطرة، فينطلق راكضا عبر شعاب القرية ـ بعد مشاكسة مفتعلة مع الآغا ـ ليختفي أياما، يعايش الأشجار والصخور، والحيوانات الصغيرة والمفترسة، يداور فيصطاد ليأكل، ويناور فينجو لينام، فحفظ حجارة الأودية وشجيرات السفح وأعشاب القمة، وهو يبرمج لمخططات انتقام سرعان ما تتهاوى ليستكمل بناء غيرها، وينتظر اللحظة المناسبة للتنفيذ، والتي لم تأت أبدا، بل كانت حادثة الزوجة الثانية، ومحاولة حميدان عرقلة العرس، ثم تاليا الاختلاء بالعروس، سببا في تفجير غضب الآغا، وإطلاق: إشارة إصبعه التي تعني القتل، فهرب حميدان ليتطوع مع الثوار، لكنه لم يستطع إلا الظهور ثانية يمتطي فرسا جموحا، لا تسمح لأحد بالاقتراب من رسنها أو مداعبتها، ولا تهمد إلا لملامسات حميدان المطمئنة، الذي كان يتألق فخرا لعشقها هذا، فلم يكن شعور التعلق الذي أبدته الفرس غريزة أو امتنانا، بل هو لصفائه يبدو حبا إنسانيا تماما، ورأى الناس في الفرس بطاقة مقتل حميدان، فتاريخه الأسود، وشغف الآغا بالامتلاك، كانا كافيين ليتوقع الجميع حادث موت قريب... لكن إيقاعات الأيام التالية أثارت دهشة الجميع: فانطلق حميدان ـ بناء

على طلب الآغا ـ ليكون مطرب السهرات؛ أما الكبار فكانوا يهزون رؤوسهم مخمنين فتنة الآغا بحميدان.

لم يفاجأ حميدان لدى ظهوره في القرية ـ بعد أيام ـ بنجاح مخاتلته، فقد خطط لها أسابيع عدة، كما اعتاد ريادته للمسالك غير المطروقة، ولم يكن خوضه لمثل وادي (العرايس) جديدا عليه، فما زالت عملية تهريبه للتركي طازجه في ذهنه، إذ اتفق معه على أخذ فرسه الأصيلة مقابل إيصاله الى مشارف تركيا مبتعدا به عن دروب الثوار وطرق القوات الفرنسية والإنكليزية، ولم ينس بعد افتقاده للنوم في مغامرته تلك، قلقا من مفاجأة ثائر أو خيانة التركي ـ بعد اقترابهما من الهدف ـ فسعى عبر حلقات متتالية ليبقيه في حيرته، لدرجة كاد بها يتوه معه في الغابات الوحشية والوديان المقفرة، لكن بوصلته الداخلية التي لم تخطئ أبدا، جعلته يتحرك كأنما مازال في قريته التي يحفظ دروبها و منعطفاتها وأشجارها ونتوءات طرقاتها، هذه البوصلة بالذات هي ما جعل قائده في الثورة يعتمد عليه في المهمات التي تحتاج لمجهود فردي وقطع مسافات طويلة، وهي التي مكنته من العمل كشافا عبر جبال "الشعرة" وصولا الى "الغاب" مع عصبة سليطين لتهريب الدخان، كما أنها حددت له التوقيت الملائم للهرب من غضب الآغا، وهي التي أرشدته في الظلمة الحالكة الى مكان الحصان، فعبر به القرية مخوضا ذلك الجزء من الوادي الممتد بين العين الشرقية والنبع الغربي، العصي على الإنس حيث لا مسالك ولا دروب، بل صخور لامعة كصفاء المياه، ومساقط عالية حادة، بالإضافة الى أصوات طبول ومزامير وزغاريد تتكرر بين وقت وآخر، عزاها أهل القرية الى أعراس للجن فسموه: (وادي العرايس)، وعزز اعتقادهم قصصا توارثوها عن اختفاء

بعض أجدادهم في الوادي الغامض، فاكتسب بذلك سمعته التي احتاجها حميدان لإرضاء غروره بالاكتشاف، وتنفيذ خطته بسرقة الحصان وتلقيح فرسه، خاصة بعد عثوره على مغارة عظيمة الاتساع والارتفاع يغطي مدخلها الدفلي والريحان والديس، فانطبعت في ذهنه كمكان مثالي لعرس الخيول، ومن يومها لم يفارق فرسه، من فرط رعبه عليها تارة، ومن فرحه بالمهر القادم طورا، فيرى نفسه: عابرا جدائل الشمس على صهوته، كارجا في كل الجهات لا يلامس أرضا، بل يطاول السماء.

■■

(3)

انترنت

أفسدتني زوجتي سريعا، فتعلمت الاسترخاء، والإنصات، وصرت أحد الصيصان التي تستظل بجناحيها المتهدلين حتى الأرض: فبعد أن كنت مشاكسا شرسا لا يهدأ عن الانتقاد السياسي والاقتصادي والجنسي؛ قامت بوضع الخطوط الحمراء أمامي مع مجيء كل ولد، ثم أكدت أن الحياة مليئة بالمتع الصغيرة، التي تبدأ من ابتسامة رضا منها، ولا تنتهي عند ضحكة مصوتة من أحد أطفالنا، وبرهنت أن الاعتقال لأي سبب ليس بطولة، لاسيما في مجتمع يمكنه زجّك السجن لسبب تافه، أو حتى... دون سبب، وصرخت: أي نموذج تناضل من أجله يا رجل؟!.. ففي أكثر المجتمعات ديمقراطية في العالم يمكن لشرطي أن يدس عشرة غرامات مخدرات ضمن أمتعة أي بريء، وبعدها يقرأ عليه حقوقه المدنية، ثم يكبله بالأصفاد.

وقبل أن تشق الفأس الرأس، وجدتني محاطا بدائرة حمراء، تتضمن تشكيلة أحاديث: مطبخ الجيران، غسيلهم، نفاياتهم، علامات الأولاد المدرسية، وألبستهم وجمالهم... ولما كنت لا أجيد النميمة، ولا أفهم بالأناقة، ومعنى الذوق عندي يختلف عن مذاق الطعام، لذت بالصمت، مع بعض الثورات التي كانت تنتابني حينا بعد حين، لكنها ما لبثت أن تباعدت ووهنت، فسجنت في أعماقي: المتهور... ونتيجة لبلوغي الخمسين، ويقيني أن العد التنازلي لحياتي قد بدأ، رحت أتقيد بالنظام الشكلي بدقة: فالقمامة لها

موعد، وتجاوز الشارات الضوئية، والدور على الفرن وأمام كوى المؤسسات الرسمية، واحترام اللباس الكاكي بأنواعه، والارتياب بالزي المدني... إضافة لأشياء أخرى متعددة يأتي في نهايتها: غض البصر وإن كنت أرسل ـ من تحت لتحت ـ نظرات فاحصة تبدو كأنها البحث عن مسلك لخطواتي، عند ممارستي للمشي: الحل الذي اخترعه الأطباء لمن هم في سني كوسيلة للابتعاد عن الثرثرة والتدخين. ولم يكن مسيري تسكعا، بل اختراقا للشوارع والأرصفة ووجوه الناس الغريبة الملامح، كأنني على موعد، أو أقصد هدفا محددا، حتى اللحظة التي فاجأتني "المرأة التفاحة"، عندها، لم أستطع كبح خطواتي عن التباطؤ وأخذ مظهر التسكع لثوان قليلة أمام إحدى الواجهات، ثم الانعطاف المفاجئ، وملاحقة التفاحة دون وقار، وكأن اللقطة الخاطفة للوجه ـ مع استكمال الصورة من الخلف ـ كانت كافية لتحديد عمرها تماما، بل ويوم مولدها، ولحظة زواجها، ووقت طلاقها، وسبب حرمانها من الأطفال، وهوسها بالأناقة، وإفراطها بالنظافة، وعملها، أحمر الشفاه، وصباغ الأظافر، نوعية العطر، وملمس الأصابع اللدنة اللطيفة.

وهكذا سايرت مشيها، وأنا أضيف بعض التفاصيل كل خطوة، والمسافة الفاصلة بيننا تتقلص ـ ماديا وروحيا ـ فأعرفها أكثر، وتشعر بأنفاسي، لكن كبرياءها تمنعها من الارتباك أو الالتفات أو تغيير الاتجاه، مما ضاعف جرأتي، فلامستها، وبرفق شديد لملمت شعرها بكفيّ، وضممت خدّيها، دغدغت شفتيها، وباتت عيناها في عيني، فطفقت أرفع سترتها... ورحنا...

... في لحظة ما، شعرت بكف حديدية تطبق على معصمي، وتلفني بقوة، فيصبح "الشخص" مع ذراعي خلف ظهري، وبيده الأخرى أمام عيني شاشة صغيرة، تعرض غرفة تغطي جدرانها زهرة كالستائر، وحمامة كالسرير يحتويني مع تفاحة كالسيدة، في وضع أصبح محرجا لأن "الشخص" يشاركني رؤيته، وخرج فحيحه من خلف أذني: أهذا ما تحلم به؟.. امش دون مقاومة.

■■

(4)

الوفاة

قبل جفاف المكالمة الهاتفية مع والدي، كنت ألهو ضمن صفحات رواية في الحافلة، فهي المرة الوحيدة التي يصر بها ويؤكد ثم يلح على ضرورة حضوري مراسم الدفن، فقد جرت العادة على أن يمثلنا ـ كامل أولاده ـ خلال الأفراح والأتراح ، وبدا لي تمسكه بتواجدي مخيفا إلى درجة جعلتني أتوه في التخمينات.

ـ ابن عمك توفي...

وأنا أعرف أنني أكبر سنا من أولاد عمي، وليس بينهم من هو في سن الوفاة؟! سخرت من هذا الخاطر واستفسرت:

ـ أيهم؟!..

ـ أبو أحمد.. زميلي في الدرك..

أدركت عندها مقصده: أحد الأقرباء، فسارعت إلى السفر مع معرفتي باستحالة وصولي في الوقت المناسب، لكي أبدو مثل من قام بكل ما عليه، إرضاء لرجاءات الوالد، بينما تتنازعني مشاعر الغضب من هذا الواجب الثقيل الذي سيرهقني خلال السفر والجنازة، ومشاعر الحزن على أبي الذي بدا كأنه يدعوني إلى جنازته وهو يراقب أوراق الأصدقاء تتساقط سريعا،

ومشاعر الاكتئاب لطريقتي الحيادية في استقبال نبأ الموت؛ كأننا سكان المدن الكبيرة نفتقد لحلاوة معنى القرابة؛ ولأن الرواية تتحدث عن موضوع مشابه، حاولت استغلال الضوء المتبقي من النهار في تقليب صفحاتها، حتى باغتتني العتمة، فوضعتها جانبا، ورفعت نظارات القراءة لأراقب قليلا الفلم، فلم أستمتع، مسحت رؤوس الركاب أمامي متخيلا وجوههم، ثم ألقيت نظرة على من يشاطرني المقعد، وكان منشغلا بأحداث الفلم المصري، التفت نحوي، فتظاهرت بمحاولتي رؤية الطريق من خلال الزجاج، لكن العتمة الخارجية حوّلت النافذة إلى ما يشبه المرآة، فاستطعت تحديد درجة اسمرار الشاب ومدى اتساع صلعته وسماكة نظارتيه، ثم أشحت وجهي باحثا عن جميلة بين الركاب تلهب خيالي، فأثار انتباهي شعر أشقر منسدل طويل على بعد مقاعد من الصف المقابل، حاولت تخيل ملامحها ففشلت، وتسليت بمشهد حركي على التلفاز أثار موجة من الضحك بين الركاب، ثم سويت مقعدي ليناسب النوم، لكنني لم استطع الانشغال عن مشاعري المتناقضة، والتي زادت إرباكا بدخول مسحة من الرضا على نفسي لتصوري مدى سعادة الوالد لاستجابتي له، فارتحت لابتسامته التي ستبدو غريبة ضمن أجواء الكآبة في القرية، وتخيلته يفخر بين الأقرباء بحضور أولاده جميعا حتى أبعدهم، وبافتقار مشهد الفخر هذا إلى مكان ريفي حاولت استكماله، فتتالت ومضات قريتي، كأنها نداء حار ينساب عبر العقود، فعلاقتي معها علاقة ذاكرة متقطعة، أرى في ذهني دروبا لا تؤدي إلى مكان، وتحفظ مخيلتي أمكنة لا أعرف طريقا إليها، والوجوه تبدو غائمة لا تنتمي إلى أسماء، وأسماء الأشخاص ـ حتى الفتيات ـ شاردة صعبة التجسيد، فمنذ كنت في العقد الأول تهتكت الحبال بيننا، لأن وظيفة

"الدركي" جعلتنا كالبدو نبحث عن الكلأ في الأصقاع، فنبتعد عميقا في الصحراء حينا، ثم نجمع أمتعتنا ضمن شاحنة لنقترب من البحر حينا آخر، لكن هبات الصيف ـ حيثما صرنا ـ كانت تحملني إلى أحضان قريتي لشهر أو شهرين، فأختمر عنبا وتينا، وتملؤني جدتي حبا وحنانا ـ رحمها الله ـ وليبقى وجهها في الذاكرة الوحيد الذي ينتمي إلى اسم، وهاهو يجلدني بسياط تأنيب الضمير لعدم حضوري جنازتها، فيظهر الألم قلقا يثير انتباه جاري: تسوية الجلوس، محاولة النوم، اتكاء جانبي لتفحص الممر الطويل، مراقبة الشاخصات التي تمرق خطفا عبر نافذته؛ فأشعر بالارتباك لنظراته، وأتشاغل عنه، لكنه سرعان ما يتأبط الفلم الكوميدي الطويل في تلفاز البولمان، بينما تأخذني الوجوه الريفية إلى بداية عقدي الثاني حيث صرت أرى في استمرار لهوي ـ صيفا ـ مع زملاء المدارس في تلك البلدات الصغيرات المتباعدات إغراء أكثر من حجارة قريتي الناتئة وحاكوراتها المتطاولة، وتحول اللهو فيما بعد عملا في العاصمة باعدني حتى عن عائلة البدو الرحل التي استقرت أخيرا في اللاذقية، على امتداد الأزرق دائم التموج، كحقل القمح أمامي الذي تسبح فيه الأصابع اللدنة، مما أظهر جزءا من الخد ينسجم في اللون مع اليد الطرية، فقررت استكشاف وجه صاحبته عند أول توقف للحافلة، لأن مشكلة الوجوه تغزوني بدءا من الركاب الذين لا أرى منهم إلا قمم الرؤوس المشعرة أو الجلحاء، وانتهاء بعجزي عن تذكر ملامح ابن العم المتوفى، الذي أجد فيه ضرورة ملحة، ففلسفة الوجه مهمة لنا كثيرا نحن سكان المدن، من خلاله نحدد الصلة بيننا، فهذا وجه زميل عمل، وهذا وجه جاري المقابل، أو هو وجه الطابق الخامس، أو الثالث، وهكذا تستطيع القول: صباح الخير جار، أو السلام عليكم زميل؛ وعندما تفشل

في سياسة الوجوه ستبدو انعزاليا مترفعا، والمصيبة الأكبر في القرية، فهم لا يكتفون بتصفح الوجه، بل يلامسون الدم والخلايا والصوت والرائحة، وهكذا يحددون لك من تصافح ومن تحتضن ومن تقبل، وبذكر القبلات اندفعت أتمرغ في مرج الذهب المتموج أمامي، وأسترق النظر من جاري خشية قراءته أفكاري فألحظه يكبح ضحكاته، ويرتسم شارباه الأسودان الكثان كنقيض صارخ لخيوط الشمس المنسدلة على فسحة الخد القمرية، فمسدت براحتي شاربي الأصهبين، لأجد فيهما صلحا للألوان المتباعدة، بينما نظرات ابني الجامعي تشي برغبته امتلاك شاربيّ فيقول:

ـ سأذهب إلى المزين وأطلب منه صباغة شعري بهذا اللون التائه ما بين الليل والنهار.

فأبتسم له وأعيده إلى محور صراعنا الذي بدأ منذ إحالتي على التقاعد وإعلاني الرغبة في استيطان اللاذقية قرب أهلي:

ـ السباحة البحرية هي من صنع مزيج الألوان هذا.

فيحتج مع شقيقته على ترك دمشق:

ـ لن تقنعنا يا أبي... لقد ولدنا وشببنا هنا، ولن نستطيع العيش في مكان آخر.

ـ مسقط رأس والدك وجدك في اللاذقية، وهناك ستكون قبورنا...

ـ أما نحن فمن دمشق وإليها...

ـ ألا تقومان بواجب زيارة قبورنا في صباحات العيد؟...

ـ بعد عمر طويل...

ـ والسفر إلى اللاذقية مربك وطويل...

ـ لا يهم الميت مكان القبر، فلتكن القبور هنا...

ـ ومراسم التشييع من يقوم بها؟!.. أين متعة الجنازة الكبيرة؟! من سيعزيك في غربتك؟..

ـ المعزون هم المعارف، وأصدقائي وعلاقاتي هنا، وليست هناك...

ـ يا بني يقول المثل: أنا وأخي على ابن عمي وأنا وابن عمي على الغريب...

ـ ويقول المثل أيضا: رب أخ لم تلده أمك... ثم لم هذا الإصرار بالحديث عن النهايات؟! فلنتكلم عن البدايات، فلتفكر بجمالية انتشار سلالتك في دمشق...

وهنا يطل فخر والدي بإنجابهما لكل واحد منا في بلدة مختلفة، ثم توزيعنا بحكم الوظيفة على مدن أخرى، في حلب وحمص ودمشق وطرطوس واللاذقية، فباتت لقاءاتنا تقتصر على الاطمئنان الهاتفي، أو مصادفة الإجازات في بيت العائلة باللاذقية، أما الحبل السري مع القرية فقد حافظ عليه العجوزان، وهاهما يحاولان تسليمه لنا، وأزعجني خاطر "التسليم والاستلام " هذا لإيحائه بقرب نهايتهما، ثم هل تكفي زيارة واحدة لاستلام الراية؟ أم أن الوالد سيجدها مناسبة ليطلبني في الأعراس أيضا؟! لأكرر وقوفي تائها في "مركز الانطلاق" كما الآن، مترددا بين التحرك إلى القرية مباشرة، أو اللجوء إلى منزل العائلة في اللاذقية لقضاء هذه الليلة، الاحتمال الذي يفقدني إيجابية: طاعة الوالد، فحسمت الأمر، وطلبت من سائق العربة الصغيرة إيصالي إلى القرية، محاولا الاستفادة من العتمة للابتعاد عن استجداء معرفة الأقارب، ورغما عن أجواء الحزن داخلني شعور من النشوة لمعرفتي الغريزية بعض الوجوه التي احتشدت حولي، وساعدني اصطفافهم للترحيب وتقبل التعازي في التمييز الهادئ بينهم، والتحضير لنوعية السلام المفترض، فبعد تقبيل يد أبي، رفعت كف عمي لتقبيلها لكنه

قاومني واحتضنني لتبادل القبلات، بينما عيناي تسترقان النظر لاستكشاف التالي، برز وجه مألوف تماما بشاربيه الأسودين الكثين وبشرته السمراء ونظارتيه السميكتين وصلعته الواسعة، وكأن عمي يسلمني لجاره قال:

ـ وصل ابن عمك من دمشق منذ لحظات، ألم تلتقيا؟!..

مد الآخر كفه للمصافحة ورفع ذراعه الثانية للاحتضان، ضممته إلى صدري وهمست خجلا: هل يبقى الأمر سرا؟!..

أجابني ونحن نبادل الخدين: خطيئتنا متبادلة.

أمسكته من كتفيه: كم تغير المدن ملامح الوجه!!

وبلهجة من عركته الحياة تساءل أبي: والنفوس أيضا؟!

أما أنا لا أدري كيف توقعت بأن شقراء البولمان ستكون بين الحشد فتطاولت أبحث عنها؟!..

(5)

الكامل

دوت الطلقة، فقفز سائق الجرافة هاربا؛ ومع صوت الطلقة الثانية، تجمع عمال الورشة ومهندسوها بعيدا عن آلاتهم خلف زاوية منزل "ديبو"، بينما انتصب العجوز فوق كومة أحجار، يرقب بتحد الذعر المتفجر، ويتشاغل بتلقيم بندقية الصيد طلقتين أخريين، ثم صاح:

ـ اتركوا القرية كلها وإلا اصطدتكم طعاما للعشاء.

فتسللوا فرادى يتتبعون الطريق الإسفلتي الذي أنشأوه في الوقت الذي ظهر فيه فارس يمتطي حصانا ويأخذ تعليماته من العجوز:

ـ اتصل بهذين الحيوانين وأخبرهما أن السيل بلغ الزبى...

وعندما انطلق الجواد بالعم حبيب مغرّبا، نزل كامل آغا بحذر عن تلته يتعثر بغضبه وشتائمه على الأولاد العاقين الذين سبق له وأخبرهم بمخطط الطريق الذي يزيل القصر وساحته، لكن ولداه (العميد مالك والدكتور المهندس أحمد) نصحاه بعدم الاكتراث للخرائط ووعيد مهندسي البلدية، وأنهما سيسيران بالإسفلت كما يشاء، ومع هذا بقيت الآليات تتجه نحوه بإصرار لتقتلعه وقصره، حتى اللحظة التي تحطمت بها البلاطة الأولى من الساحة، عندها لم يكن أمامه إلا أن يتناول البندقية لاعنا الزمن الذي ألجأه لتنفيذ أعماله، إذ اعتاد الفعل عبر رجاله، فكانت ابتسامته أو همسته أو

تجهمه بل حتى تشنج سبابته أوامر مفهومة وكافية لينطلق الرجال بعد إلى تجسيد رغباته تلك وتحقيق مشيئته، منذ كان رجاله أشقاؤه الأربعة، وحتى حين استبدلهم فيما بعد بمن هم أفضل طواعية وأكثر شراسة من أقربائه الفلاحين؛ وما كان ليشترك في تنفيذ أمر صدر عنه إلا في المنعطفات الهامة من حياته، فهو لا يستطيع نسيان "معركة القوزلّي" والتي خطط لها وشارك فيها بغية القضاء على شفيق آغا في صراعه معه للسيطرة على القرى العشر المجاورة؛ ففي عيد "القوزلّي" جرت العادة أن يجتمع سكان القرى كبيرهم وصغيرهم عند مزار قريب، وبين أشجار السنديان والبلوط العتيقات، ينسون الضغائن والأحقاد، ويقدمون الأضاحي، ثم يحتفلون بقية النهار، ويتفرقون وقد تصالحوا وصفت القلوب وغفرت الخطايا، ليبدأ عام جديد وذنوب أخرى، وفي ذلك العام ورد إليه أن شفيق آغا خطط لقتله وأشقائه، لكن بالمخاتلة والمداورة وحنكة التخطيط استطاع استلهام روح "القوزلّي": كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة، فحقق نصره...

ونتيجة لخرق شفيق آغا تقاليد العيد انتقل الشيخ سعيد إلى صفوف كامل آغا فكانت الضربة القاضية للأول والانطلاقة المفتوحة للثاني فأتم الإحكام على ريفه الجبلي، أحس بالتالي بحاجته الماسة للحصول على مكافأة الانتصار، فأشاد قصره الفسيح بشكل يتوسط القرية التي أحاطت به كسوار محكم الإغلاق، معبرا عن غريزة قائد عسكري، ولما أتم البناء، انتصب يرقب إنجازه، ويستمع إلى مباركات الشيخ سعيد الذي ختمها بقوله: قصر كهذا يحتاج إلى سيدة تتستت عليه، فاجتاحته رغائب الزواج، وجمع رجاله مصطحبا الشيخ سعيد معه ليطلب "زريقة" من تلك القرية الجنوبية البعيدة، مع تصميمه المسبق على إحضارها إلى قصره

بأية وسيلة كانت فقد أثارته الحكايا عنها لدرجة عشقها غيابيا، وآخر أفعالها كانت إنقاذ قريتها من التدمير والحرق أمام حملة تركية تأديبية، فبلجوء الرجال إلى الشعاب والغابات، جمعت نساء القرية ليحملن الأعلام البيضاء، ويحرقن البخور، ويرددن الأناشيد الدينية: طلع البدر علينا من ثنيات الوداع... فأعلن القائد التركي العفو وحوّل حملته إلى قرية مجاورة ليبيدها، وقد وجد كامل في زريقة المرأة الوحيدة القادرة على التستت في قصره، وسرعان ما أسرته حكاياتها التي لا تنتهي، ونصائحها التي لا تخيب، وأوامرها الحازمة للرجال والتي لم تكن لتتكرر، وحققت له كل ما يشتهي، إلا أنها عجزت عن إنجاب الذكور فبقي نداء الصبيان يغلي في عروقه، ولم يهدأ هذا الغليان رغم معرفته الأكيدة أن لديه ولدا ذكرا، وأن حميدان هو ابنه الوحيد، بل كان ذلك يزيده اضطرابا لإحساسه أن امتداده سيكون "حراما"، وعصفت به رغبات قتل حميدان، إلا أنه امتنع مرارا عن ذلك خوفا على نسله المهدد بالانقراض، ولم يشعر بالراحة التي تشبه التخلص من خصومه إلا عندما تمكن من التوصل إلى فكرة اخصاء حميدان ـ ليمنع امتداد تلك السلالة غير الشرعية ـ فنفذها فيما بعد، عندما شعر بمنافسة حميدان له على زوجته الثانية، والتي استطاع الشيخ سعيد وصفها له، وتأكيده على إنجابها الذكور: نحيلة ذات عينين سوداوين، وبشرة بيضاء صافية يشوبها أعلى الأنف نمش أشهب خفيف، فانطلق العم حبيب في مهمة البحث السرية بعيدا عن "عيون" زريقة، التي لم تشعر إلا والضرة تحتل غرفة في القصر، إلا أن السيدة الجديدة كانت من الضعف بحيث بقيت خانعة "لست القصر".. ومع أنها استطاعت إنجاب ذكرين متتاليين، إلا أنها لم تعرف كيف تتقي هزائمها المتتالية أمام "الست" والتي بدورها

استحوذت على الصبيين وأنشأتهما كطفلين لها، أما كامل آغا فقد كانت سعادته بخضوع الواحدة للأخرى تكاد تتساوى مع سعادته بمالك وأحمد، فترك أمرهما لزريقة عن طيب خاطر، آملا في استعادة ثقتها ومحبتها، ورغبة منه بأن يكتسبا بعض قوتها وذكائها، بالإضافة إلى عدم إمكانية ملاحقة أمور البيت والأولاد نتيجة توسع أعماله، خاصة في التبغ، الذي أدخله إلى قراه كمحصول رئيسي للزراعة، واعتبر مجيء "مالك وأحمد" بمثابة مكافأة إلهية له رافقها الرزق الحقيقي عبر تكدس الأموال، واتساع اتصالاته مع الفرنسيين الذين تفهموا حاجاته ومتطلبات ريفه، واستطاع بمجهود شخصي منه وبمعونة الحكومة وسخرة الفلاحين ـ إيصال طريق لعربة الخيول ينتهي عند باب قصره، وعلى نفس الطريق عبرت سيارة صديقه القائد الفرنسي الذي قال: عند هذا الباب غاية الجبل ومنتهاه، ومع زهو كامل آغا بهذا الكلام آنذاك، إلا أنه يرى في الطريق ـ الآن ـ نقمة عليه، فما حدث من تطورات وأحداث وتأميم للريجي وغيرها، ومطالبة القرى التالية والأكثر إيغالا في الجبال بطرق وكهرباء وماء، بالإضافة إلى رغبة ابنه العميد مالك في الوصول المريح بسيارته الحديثة كارجة على الإسفلت، جعلت من الطريق المرصوف حجارة والمعبد بالحصى موضة قديمة، وتلك المقارنة بالذات بين ما عجنت يداه وما يريده أولاده من تحديث أرعن، فجّرت ذاكرته على تلميحات حنونة من "الولدين" لإعادة تخطيط القصر وبنائه بشكل فذ، فانتهكته الشكوك بتآمرهما عليه مما دفعه للهياج في وجهيهما، والضغط بكل قوة عليهما، لترك الإسفلت ينساب ملتفا حول القرية، لكن المهندس المنفذ ارتأى الاستفادة من جودة صنع الطريق القديم حتى المتر الأخير منه، ثم المتابعة عبر القصر والخروج

من القرية في "السهلة" وتجاوزها، منقذا في نفس الوقت سوار البيوت المحيط بالقصر من الهدم، ومع إصرار المهندس على أن الطريق (فنيا) لا يمكن أن تغير مسارها، وأمام مقاومة كامل آغا وتهديده لحياة العمال، لجأت البلدية إلى حماية الشرطة والعودة إلى إكمال الطريق، لكن الجميع فوجئوا بفصيلة عسكرية مسلحة قدمت من دمشق، قد أحاطت القصر في مواجهة الشرطة، وقدّم قائدها لرئيس المخفر برقية تنص على "اعتبار القصر وملحقاته أثرا وطنيا تابعا لدائرة الآثار والمتاحف لا يجوز المساس به"، وأوضح قائد الفصيلة: أن كامل لم يهدد أحدا ولم يطلق النار باتجاه بشري، بل كان يقصد بضع حمامات تنقر الحب المنشور على السطح، والدليل هو تأكيده على الاصطياد لطعام العشاء، ومن غير المعقول أن يكون من أكلة لحوم البشر!!...

أما الآغا فكان يرتشف القهوة على (المضلة) وهو يراقب الآليات تتابع شق الطريق بشكل قوس حول القصر، وتأكل أمامها مساطب البيوت القريبة، بينما ابتسامة راضية غامضة تغزو عينيه، وسبابته ترتعش معلنة الحياة.

■■

(6)

مجموعة ق ق ج

1 - ابنائي

يندفع ثور وحشي عابرا النهر فتتثنى أمواج لتذوب زبدا على شواطئ الرمل والحصى.

2 - الموؤدة

رعت الدودة جيدا، وأحكمت شرنقة متينة، فما استطاعت ثقبها، وما تحولت فراشة.

3 - الطير الحر

يحلق بأمر، يناور بمتعة، ثم ينقض بلمحة؛ يمسك الفريسة بمهارة، ويتباهى عائدا باستقامة، ليحط على يد سيده، ويسلمه الصيد.

4 - تخلقات

.. على صفحة بيضاء، رسمت عصفورا زاهي الألوان، يخفق جناحاه في مساحة اللوحة.

على الصفحة التالية، زخرفت قفصا ذهبيا بعدة جواهر، وتركت بابه مفتوحا.

وبالتكرار، فاجأني مشهد جديد...

5 ـ سؤال

... وكان الملك يتنكر بملابس العباد، ويسير في البلاد، فيكتشف أحوالهم، ويكتنز أسرارهم، ويتسقط مظالمهم؛ ولما تعب الملك، كلف بعض المقربين، ووظف آخرين، بعد أن زودهم بتوجيهاته، وأعطاهم تعليماته؛ ولما توسعت الامبراطورية، وزادت عدد الأفواه والآذان: صار الملك كمبيترا، أم صار الكمبيوتر ملكا؟؟؟

■■

(7)

حياة مواطن ـ ق ق ج

مقدمة تاريخية استهلالية لابد منها:

في بداية السبعينات (من القرن العشرين)، نشرت لي جريدة (الثورة) السورية قصة قصيرة جدا، لم يتجاوز عدد كلماتها الدزينة، فاضطرب الجو الثقافي ـ حينها ـ بين محبذ ورافض لهذا الشكل الجديد... وبعيد منتصف التسعينات (من نفس القرن)، أفلتت ـ من غير قصد ـ القصة التالية.

عندما كتبتها بشكلها الأولي، لاحظت بعض الترهل والشحوم الزائدة هنا وهناك على جسدها، ولما كنت بطبعي لا أحب البدانة ولا البدينات ـ

تماشيا مع موضة العصر ـ قررت إخضاع القصة (للرجيم) القاسي ـ من لغة عارضات الأزياء ـ والقصة تعج بهن، فتم حذفهن، وترك موضوع تخيلهن للقارئ؛ ثم جاء دور التجار الكبار والصغار ـ ومشاركتهم في الحكايات حتمية عادة ـ لكن الإيجاز، أجبرني على (إنزال الوزن والخوصرة) ـ لاحظوا لغة البيع والشراء ـ أما عقدة القصة ـ ولامتلاء حياتنا بالعقد ـ لم أشأ إضافتها، وبالنسبة للحوار: ففي الواقع نحن مشبعون ثرثرة، فلم التكرار؟!، وبما أن معظم الكتابات تبتعد عن ذكر العسكر إلا في معارك التحرير ـ و قصتي لا تتناول حربا ـ فقد انصعت للعادة، وحذفت بعض الجنرالات والجنود المبثوثين هنا وهناك.

تعرفون جميعا أن الطرف الأهم والأساسي في أي عمل أدبي، هو المتلقي ـ تحديدا خيال القارئ الفعال ـ وما القصة إلا تحريض هذا الخيال، ودفعه باتجاه الحلم...

فإلى قصة "الرجيم"، "الخوصرة"، "البدون أبطال".

6ـ حياة مواطن

حاضر سيدي

■■

(8)

اغتيال خائن

ـ هل تعرفون لماذا سمي الحمار حمارا؟!

سألنا "سيخ التنظيف" هامساً، وهو يناور خلف صخرة، ويرمي الخنزير البري حجرا، بينما نساعده من اتجاهات أخرى، لدفع الخنزير إلى حقل الألغام؛ وهذه عادة نمارسها في الليالي المقمرة، بانتظار ليلة مظلمة من الشهر، لنعبر الحقل في الممر الأكثر تخريبا؛ إذ كثيرا ما يهمل الإسرائيليون إصلاح انفجار لغم أو آخر نتيجة عبور حيوان بري ـ فهذا حادث عارض ـ... وعندما طرح "سيخ التنظيف" سؤاله، ابتسمت ساخرا، لتوقعي حكاية طويلة وطريفة، سيسردها صباح الغد مع الإفطار، إجابة على السؤال؛ فهي عادته: يبدأ بالمقدمة كل ليلة، ومع إطلالة الشمس العدوانية، يعرض القصة، ويختمها مساء.

سأستطرد قليلا، لإيضاح بعض المفاهيم: لماذا "سيخ التنظيف"؟ فهو ليس اسما حقيقيا ولا حركيا، بل لقب أطلقه أحمد على نفسه، عندما لم يجد موضوع سخرية، ففسر: طوله ونحوله.. كما أطلق تسمية "شو ربة" على عزيز منذ الدورة التدريبية، عندما طالب عزيز بتحسين الطعام، ووقف ليبرر طلبه، فارتبك، وخاف غضب مدير الدورة، إذا تساءل عن اللحوم وكميتها القليلة، فجميع الحضور يعرفون مصير اللحم والشحم والزفر... لذا

لمعت في ذهنه الفكرة الشيطانية ـ بعد تورطه بالوقوف ـ:
ـ نريد تحسينا لمستوى الحساء..
وذهبت مثلا.. أما حضرتي، الماثل بين يديكم، فقد أسماني "البلوّ"، معبرا عن ولعي بالطعام، وكل ما في الأمر هو انصرافي بجميع غرائزي للاستمتاع باللقمة، وشعاري دوما: عند حضور الطعام يبطل الكلام.. ويعلق أحمد ـ عفوا ـ "سيخ التنظيف": "البلوّ" يعادي الصحن الفارغ كمعاداته الصهاينة، وكثيرا ما يضيف: "بلوّ من الحجم العائلي"، موسعا المسافة بين كفيه إلى أقصاها..

ثم، لماذا أكدت عدوانية الشمس؟ وتركيز الحكايات نهارا... السبب هو: تواجدنا في المرحلة التحضيرية لعملية داخل الأرض المحتلة، نتخذ قاعدة انطلاق قريبة من الحدود؛ وفي الجنوب اللبناني، من الاتجاه الشرقي، تكثر الجبال والمغاور الطبيعية، فنسكن إحداها، ونعدم حركتنا نهارا إمعانا في التمويه، فلا يتبقى أمامنا سوى: المرعى وقلّة الصنعة، مع بعض الحكايات والمزاح والنوم، وقد اعتدنا ذلك مرغمين، لأننا في الجهة المقابلة، ضمن الأرض المحتلة، نلجأ إلى كهف آخر ـ ولكنّ والحقّ يقال: كهف ذو إطلالة جميلة ـ لذا أطلقنا على أنفسنا تسمية "أهل الكهف". أمّا "سيخ التنظيف" فقد أكّد عدم استحقاقنا هذه التسمية، بانفعال شديد، وبلهجة ريف نابلس رقق القاف حتى صارت كافا: أقول (أكول) علنا، بأننا لا نستحقّ (نستحكّ) أكثر من"سكان المغاور". مصرّا على المعنى البدائي، بالرّغم من ثقافته التي تساوي الصفر، وبالرغم من عدم تعصّبه للمواقف الدّينية؛ فلقد فاجأنا مرّة بإحضار خروف إلى الكهف، وادّعى اصطياده، ولما رأى دهشتنا قال ضاحكا: حسن، رأيته آخر القطيع، منفردا، متثاقلا، فإما تعتبرونه صيدا، أو

أسير حرب....
نعود للحمار، ورواية سيخ التّنظيف التي بدأها على ذمة الرّاعي ـ صديقنا الذي أضاع خروفا ـ إن الحمار يسمّى هكذا، لأنّه يتباهى ويتأنّق بنهيقه ـ أبشع ما لديه، وأنكر الأصوات ـ خاصّة عندما يرى أتانا تتحرك أمامه أو في الحقل المجاور، يعلن غرائزه بصوت ولا أعلى... أمّا الأتان فتبقى صامتة، مؤدّبة، وديعة... تابع حديثه عن الحمار والجحش والفارق بينهما، بينما أخذت الفكرة تهزني.. لقد كانت مهمتنا تفرض علينا اصطحاب حمار لدفعه أمامنا أثناء عبور حقل الألغام.. فكيف سنأمن للحمار بعد هذا؟؟.. ومن يردعه عن التصويت في أحرج اللحظات؟؟.. ياءا لهي، ستكون فضيحة قاتلة هذه المرّة.. ولما طرحت مخاوفي عليهم، صاح "سيخ التنظيف":
- والله.. للمرّة الأولى أقتنع بأنّ للمعادن عقلا.
وهكذا استبدلنا مرافقنا بمرافقة، حصلنا على أتان فتيّة، أتممنا معها الرحلة إلى الطرف الآخر، حيث الكهف ذو الإطلالة الجميلة، دون متاعب أو نهيق...
مع تلاشي العتمة، لحظت، وللمرّة الأولى في حياتي، قلقا يكتسح أعصاب "سيخ التنظيف"؛ عزوت الأمر للخوف الذي يباشرنا مع مطلع كل مهمّة، لكنه لم يهدأ، ولم يتكلم؛ يزحف خارجا من المغر، ويعود دهشا، حاولت امتصاص رعبه الواضح: اجلس، وحدّثنا... مالك؟!
قال: الأتان؟!
ابتسمت متخابثا: وما تريد منها؟
صرخ جادّا: أيّها الأحمق، أدخلتها إلى الكهف، وربطتها جيّدا، ها قد أفلتت.
قلت: دعها، فلتذهب لا أظنك خائفا من لقياها حمارا إسرائيليا، فتطبّع

العلاقات معه.

ـ يا بلوّ أفندي.. أكّد لي الراعي، أن الأتان تستطيع العودة من حيث جاءت، وتسلك لهذا نفس الدرب، وهي تعرف مخبأنا، فإن وقعت بأيدي الجنود الصّهاينة ستجدهم كالجراد... وبدأ حركته في الكهف الواطئ، كالمكوك، لا يهدأ ولا يمل.. خاصّة بعد أن أكّد "شو ربة" رؤيته جنديا إسرائيليا، يقود الأتان إلى المعسكر القريب، سألته ساخرا:

ـ وكيف ميّزتها؟. فأجابني مدهوشا:

ـ ألا أعرف (حمارتنا)؟!

وهكذا تتعرّض مهمّتنا للخطر ثانية، قبل التنفيذ، وعند وصول اللقمة للفم، بسبب الحمير وسلالتهم، وكالبارود يهبّ "سيخ التنظيف"، ويعلن خطّته: اغتيال الأتان، وليست من طريقة سوى الذبح، من الوريد إلى الوريد. ثم شرع بتحضير مديته، ولم يعد يرى أيّة إمكانية أخرى: إما نحن أو.. هي.. مع الليل، انطلق "سيخ التنظيف" لتنفيذ المهمّة الطارئة، ثم لم يعد، فهل: نفّذ مهمّته؟!، أم أن الراعي كان كاذبا.

■■

(9)

الاختيار

1ـ مقدمة:

كان أمرا عاديا أن تنتخب بريطانيا رئيسا لوزرائها، أما أن يكون "طوني بلير" فهو ما فاجأني تماما: لتطابق تاريخ ميلادنا؛ مما جعلني بشكل لاشعوري أتحسس ندبة إليتي، وأطيل النظر في المرآة لأراقب آثار جرح آخر يدفع وجنتي، كنت أراه في عيني كل من ألتقيه، خاصة الإناث.

2ـ أولا:

يدفعني خوف فطري متراكم عبر أجيال سابقة لمقاومة الولادة... ثلاثة أيام من (النضال الدؤوب) و(الكفاح المرير) ظللت (صامدا) (أتصدى) لمحاولات جسد أمي لفظي خارجا، تساعده الجدات، ودعوات الجارات، وخبرات الدايات... وعندما انتهت المعركة لم أقوى على الصراخ، فقط استسلمت لأنين خافت متقطع.

3ـ ندبة الإلية:

قادني والدي في اليوم الأول: إلى المدرسة.

بعد أيام انتابني هاجس لم أستطع فهمه حتى هذا الوقت: اختصار الطريق.

فأكتشف حلقة كلاب تحيطني، تكشر عن أنياب بيضاء طويلة حادة، تتحفز بأجسادها، تطأطيء رؤوسها، تركز أنظارها على حركاتي، مع زمجرة تحضيرية لنباح غاضب... ولم تكتمل أبدا محاولتي للهرب، فاستيقظت في المشفى أحمل جراحا وضمادات...

فهمت أن إغمائي سبب نجاتي من الموت، وعدت إلى المدرسة أحمل ندبة كبيرة على إليتي، وجرحا لا يزول يطبع وجنتي؛ ليذكرني يوميا صباحا بأن واجبي شمّ خطوات والدي باسمرار....

4ـ كيوبيد:

كان كيوبيد يغمس سهامه بعطر الحب، فيترك آثار الوله، والانجذاب، والعشق، فيتسلى ويلهو بالقلوب طائرا من مكان لآخر؛ لكنه اكتشف أن فعلته ليست إلا وظيفة كبلته بها الآلهة، لذا فقد الحماس، ورغب عن الاعتناء بسهامه، ثم انزوى ركنا؛ مما جعل انتظاري له بلا طائل، فقامت عائلتي بدوره، ووضعت شروط الجمال والنسب والوظيفة (تعويضا عن الحسب)، لكن هذه الصفة وإن بدت "ظاهريا" لمصلحتي، فقد جاءت لتعطي هامشا من الحرية لزوجتي أكبر مما أحلم، فإذا أضفنا هذا الهامش إلى ما كانت تتمتع به من موهبة للحصول على ما تريد مهما بلغ، واستطاعتها إقناعي بوجهة نظرها، وقدرتها على مساومتي حتى في أكثر لحظات غضبي وشرقيتي، وإجادتها الباهرة لاستخدام سلاح الإلحاح والتكرار، والبراعة المفرطة في المقاطعة الاقتصادية وأحيانا الجنسية... فسيتضح كيف يتسع الهامش ليشمل الصفحة (كاملة)؟!!.

5ـ كفاحي: (بعيدا عن هتلر)

اختارتني العلامات في الثانوية وحددت طريقي...

اختارتني الوظيفة...

اختارني رئيسي (مفتاحا) له...

6ـ باتجاه رامبو: (قريبا من البطل الأمريكي)

شاركت زوجتي (باختيار) أفضل لفظة عربية قحة نطلقها اسما لبكرنا، وعند بلوغه الرشد، فاجأني القاضي بقبوله ادعاء ابني لتغيير اسمه.

7ـ خاتمة:

..... أنتظر الموت بصدر مفتوح، فهل أبدو شجاعا؟، أم أن مداورتي للموت لينساني مناكدة مفضوحة؟!.. ربما؟!.. فقد أفعل شيئا بشأن اللجام الذي يساوي الفراغ = الموت = المجهول = النوم المديد = الضجر الأكبر من الخواء > العدم الأصغر من الأرق < السأم < القرف < السجن < العبودية < الحلم < الإرادة < الألم... وربما أمحو هذه المفردات بانشغالي بالإعداد للانخراط في الانتخابات القادمة.

■■

(10)

الأحفاد

اهداء: الى اوسكار وايلد صاحب "الأمير السعيد".

لم ينتهي الأبطال بشكل مأساوي؟، وكيف يطرح ذاك الجسد الصغير فوق كومة من التراب؟، ولماذا يموت أي مخلوق عشقا؟!...

تزاحمت الأسئلة كالأشباح في الرأس الصغيرة. أجهدته الأحداث الكبرى في حكاية الجدة عن الأمير السعيد السنونو الصنديد، حتى لم يعد قادرا إيقاف تدفقها، فنشر جناحيه، وانطلق باحثا عن إلهية مع أصدقائه، الذين تحولوا إلى غم إضافي، بإحساسه الدائم واللجوج للاختلاط بهم، ومجاراتهم الطيران استعدادا للرحلة المقبلة، والتحليق بحثا عن الغذاء، كأحد الهموم التي ألقاها أبواه على كاهله، فهل يمزق حشرة تتهادى؟ أو يراعة تناور؟ بل ربما بعوضة ذهبية تتمرى على سطح الماء؟!! يا لها من رأس مسكينة، تلك المسكونة بكل هذه الصور؛ يا له من جسد بائس، ذا ك الملقي تحت هذه الأثقال... السرب أم الجد الصنديد؟! الطعام أم التاريخ؟! الرحلة أم الحب؟!!.

يقرر حاجته الماسة إلى ترتيب الأفكار، ووضع الأولويات: موسم الهجرة قادم، والسرب يستعد: رياضة وغذاء، تدريب مستمر وطيران مشترك، عزف جماعي بآلات منفردة. وإذا كان سيخوض تلك المغامرة الطارئة فعليه ألاّ

ينساق خلف غرائزه، وألاّ يترك للمصادفة مجالا، بل سيلتزم مخطّطا زمنيا يفضي به إلى جسد قوي، يتحمل البرد كأقسى عدوّ محتمل، ونظر ثاقب لمساعدة الأمير في البحث عن الأهوال، في أسوأ الأحوال، ثم عليه بعد ذلك الاحتفاظ بزمن احتياطي للحاق بالسرب ، وإضفاء السعادة على خاتمة البطولة.

مع بداية الرّحلة يقلع برشاقة، منفصلا عن السّرب، ينخفض إلى مستوى سنابل القمح، يتغلغل بين السّوق المصفرّة، يلتهم عجولا جرادة، يتسلّق الهواء بشكل حاد، يمسح الفضاء الرحب بعينيه الحادّتين، ينعطف صوب الطريق الإسفلتي، يحلق موازيا إياه، مدركا أن المدن ستتقاطر كحبات سبحة. يرقص قلبه على أنغام الفرح المتوقّع، ملوّنا لحظة اللقاء بالأمير السعيد ـ أو أحد أحفاده ـ بشتى الظلال... لم يشعر بالوحدة ولا الملل، بل كان تتالي بعض الواحات، والتقاط البعوض، يلهبه حماسا، ويزيده تصميما... وعند خط الأفق ظهرت المدينة، فحث جناحيه، وقلبه ينقبض كتلميذ يلج امتحانا... ثم رأى التمثال في مدخل المدينة، لكن: سرعان ما أسقطه من حساباته، فبالرّغم من كونه ضخما، ويعتلي منصة، إلا إنه يواجه القادمين، فاتحا ذراعيه، مرحبا بمن أضناهم السفر، مشيحا وجهه عن المساكن خلفه، والتي تترامى وتتراص، ثم تعود للآن فلاش من جديد، حول خيط السبحة، الذي يتحضر جنوبا لا يلوي على شئ، فيسايره السنونو، صعودا وهبوطا، بينما بدأت الظلال تستلقي على الأرض مستريحة هاربة من الشمس.

تتساقط التماثيل وخلفها المدن، ويدهشه التشابه الكبير بين الوجوه، بالرغم من اختلاف الوقفة والحجم والوظيفة، فمن حامل كتاب، إلى رافع شعلة، أو ممسك بفأس، من أعزل إلى قابض بندقية... أمّا الملامح فلا تتغيّر،

والابتسامة تتطابق، وتتقاسم استقبال الضيوف، حتى تلك التي تتوسط ساحة المدينة، ترتفع فبالتها، على مرمى حجر، الأبنية الفخمة تقلص الأفق.
مع تسرب اليأس يلوح الأمل على هضبة صغيرة، تعلوها منصّة، وفوقها يشمخ الأمير السعيد، ناهضا كالعنقاء، يمدّ يديه، يربّت على كتف المدينة، يدعوها للنوم بسلام، تجذبه الابتسامة العذبة التي تضفي عليها أشعة الشمس الغاربة: غموضا، يتزايد بسطوع الأنوار المسلّطة من كل اتجاه.
إنه المطلوب،... فيحط على الكتف الواسعة، وينطرح مستسلما للكرى، وأحلام اللهو مع السرب، خفق الأجنحة، اصطفاق الهواء، الزقزقة، التحويم والتـدويم.. الرشاقة، وخفّة الحركة....
يتدفق المساء عبر الفضاء، ويتوقع السنونو دمعة على جسده المنهك، ويطول انتظاره، فيقرر المبادرة، يقلع ويحوم حول التمثال، يراقب المرج عند قدميه، يرتفع إلى مستوى الرأس، تشدّه الابتسامة، وموقف الترحيب، الراحة التي تدعو للهدوء، وتبعث الطمأنينة، التقطيبة الخفيفة بين الحاجبين، تعطي العينين نظرة تركيز وعمق.
يهمس العصفور: أيها الأمير السعيد.. أيها الصديق القديم، ألا تذكرني؟! ألم تسمع قصة أجدادنا؟.. أتحتاجني بشيء يعوّض ثباتك وارتباطك بهذه القاعدة الصخريّة؟!..
يقترب من العينين، ويرقب امتداد النظر، حيث ترمي النوافذ المضاءة منثورة كالذهب، تلفت انتباهه امرأة تقف إلى قدر وتحركه، يجاورها أطفال يتعلقون إزارها..
ـ أليست خدعة قديمة؟!.. هل تحرك ذكرى في الأعماق؟.. ألا ترى؟.. علّك تبرّعت بعينيك؟!.. سأقوم بجولة، ثم أعود لأحكي لك، حسن.. هل أنت

موافق؟.. أوه، هل فقدت لسانك أيضا؟.. كيف أيها الحميم سنتفاهم؟!.. هاأنت تسلّمني لليأس ثانية....
تتساقط قطرات ماء، يستأنف التفاؤل، لكن سرعان ما يعود الأسى، عندما يكتشف سيّارة ضخمة، ترش التمثال بالماء لتنظفه من بقايا الغبار، وتسقي المروج والأزهار المحيطة بالمنطقة. يراوغ شلال الماء، ويتلاشى جسده في العتمة، مقررا ملامسة الأحياء والأزقة والبيوت.
يرى: الحصى في القدر، المساومات في الغرف المقفلة، الجنود في الأزقة، العسس يمسكون بالكاتب ذو الشعر البني الأشعث، الصناديق الضخمة تنقل بلا صيحات "هيلا هوب"، بائعة الكبريت والسجائر يضربها أبوها، شقيقين يتذابحان، لصوصا يسرقون، عاهرات يتمددن... ويرى: الصمت.
يقفل راجعا، والقلق يربض في عينيه، يلاقي التمثال الهادئ العملاق بابتسامته الواسعة، واليدين الممدودتين بحنان، يحط على الكتف الواسعة، يهمس: (كم هو جميل وكم هو بارد)؛ يفيض بالزقزقة، ويسرد القصص عمّا يحدث، ثم يحكي للتمثال أسطورة الأمير السعيد، التي تداولتها أجيال السنونو عبر سهراتها الشتائية.. ينتظر: همسة استجابة، يصغي باهتمام علّه يسمع صوت تصدّع عجيب في الصدر الواسع؛.. ومع أن الجو لازال دافئا... فقد كان يشعر بالبرودة تهزّه بعنف.
يعجن العصفور يأس وأسى.
يزعق بكل قوّته: أيها الأمير المسكين، تفقد حتى قلبك بصمت.
تستيقظ الشمس على صوت تصدّع القلب الصغير، فتطلّ بكسل على الجسد المشلوح بين قدمي... الصنم

■■

(11)

اللائحة السوداء

بات اللقاء أكثر من وقفة قصيرة أو سلام عابر، فبعد ابتسامة الصباح، اشتركا بخطوات قليلة، اقتصر حديثهما بداية عن الطقس ونسمات الشروق، ثم أمسك كل منهما سبيله وراح... يوميا، كأنهما على موعد، تزداد الصلة والحميمية.. صار الأستاذ قحطان يبحث بعينيه عن أبي سعيد لحظة خروجه من منزله، يمشيان جنبا إلى جنب جلّ طريق المدرسة، وهو يشكوه إحساسا بليدا بمراقبة صارمة دائمة، ويلعن تلك العيون التي تلاحقه حيثما حل... مئات من العيون تغرز في ظهره، تشده إلى الخلف، وعندما يلتفت يرى الشارع مكتظا بالطلبة والصغار.. كان يعزو شعوره هذا لخطأ في ثيابه، لكنه مع كل القيافة التي استمر عليها فيما بعد لم يستطع تغيير شئ... تلك البكائية كانت تقبض على أبي سعيد طيلة الطريق، والدهشة تمرغ وجهه بينما يرى زميله يلتفت فجأة للخلف ليعود مطأطئ الرأس واصفرار يغزو ملامحه، فاضطر فيما بعد إلى إيصاله حتى باب المدرسة، ثم في مرحلة تالية دخل معه الصف، يعاونه في التغلب على مزعجيه من أساتذة وطلبة....

يترك الأستاذ قحطان انطباعا أوليا: متسرع وأهوج، كلماته سباقة إلى الأذية، مع أنه اعتبر نفسه: (أدافع عن الحق.. أقوله ولو على قطع رقبتي)، وعندما بدأت العيون تلاحقه انخفضت لديه الرغبة في الكلام، حتى دروسه بات

يعطيها بأقل حجم ممكن من الشرح، مستبدلا الإيجاز بالاستفاضة، والكلام المدرسي الدقيق بالأمثلة التاريخية المتعددة، وامتنع تماما عن الاسقاطات المعاصرة. وإذا حدث وأفلتت منه كلمة يمكن أن يساء تفسيرها فإنه يعود إليها... يشرحها ويمطها، ثم يعجنها ويقلبها، يرميها بعيدا ويتلقفها من جديد، حتى يفرغها تماما من محتواها ومراميها.

جلس إلى طاولته الصغيرة في غرفته الضيقة، وكوم اللحم ينام في الزاوية، امرأة ضخمة وأجساد صغيرة فوقها وتحتها وإلى جانبها.. الشمعة تلفظ أنفاسها الأخيرة، والنوم يجافيه. أضحى همه الأوحد معرفة مصدر الرقابة، ومسببها، علّه يخفف منها، يقزم نتائجها، لذا أصر على وضع لائحة اسمية بالأشخاص المرشحين لقدح الشرارة الأولى، وأهاله رؤية هذا العدد الكبير من الأعداء المحتملين، فإذا أضاف عددا من البعيدين عنه ـ تبعا لنظرية الاحتمالات ـ ثم أخذ بمقولة "المتهم مدان حتى تثبت براءته" فيستطيع إضافة من هم الأكثر حميمية وقربا إلى حياته، والمنطق يقول: الأقربون أولى (بالمعروف!!؟)، وهكذا تمتد اللائحة إلى ما لا نهاية... لكنه عاد القهقرى وبدأ يختصر ويشطب، يعدل ويجدد.... ثم مضى، ثابت العزم، بأن عليه التفكير (مثلهم!!؟) فوضع (اللائحة السوداء!!؟)... بدأها، أولا، باسم ذلك التلميذ الغامض، الذي يدفع رأسه في المقعد، يكتب باستمرار كل كلمة يقولها، مضيفا بعض الشروح عن حركة المدرس، محسنا صياغته بعدة علامات استفهام وتعجب: (بما يتلاءم مع اللهجة)،... وكيف أمسك بدفتره ليرى:

"ـ في البدء كان السؤال!!"

هكذا افتتح الأستاذ قحطان درسه في التاريخ.... راقب ردة فعل التلاميذ،

ثم تابع:

ـ هزيمة واحدة تكفي شعبا حيا ليتساءل... لماذا ؟.. وكيف؟.. عندها لا تتوالد، لا تفقس... لا تتكرر، بل تجهض!!

الطلبة مأخوذون بكلماته!!، بينما هو يفتح كفيه، ويرفع يديه، ثم يقبض على الهواء، لينزلهما بهدوء!!؟"

كانت تلك الصفحة كافية لإفقاده توازنه، فاندفع أبو سعيد الخضري، مزق الأوراق، ورماها في وجه الطالب، صرخ باشمئزاز، ورفع يده ليهوي بها على... لكن الأستاذ قحطان انبرى مهدئا الموقف:

ـ قلت لكم.. شرحت.. كررت، أنصتوا فقط.. لا تكتبوا، لا تسجلوا، أريد أدمغتكم... عيونكم!!..

ثم توقف عند الكلمة الأخيرة ليتأتئ أمام عيونهم الذاهلة، التي تذكره بعشرات النظرات الملاحقة إياه، حيث اتجه، وأنى راح. أحس بالاقياء وهو يشكو ذلك لرفيق المسيرة الصباحية: (لم تكتف الجدران بآذانها بل أضحت عيونا مفتوحة دوما)..كم هي مذلة هذه الأحاسيس: (أن تشعر بطلابك رقباء عليك).. لذا سرعان ما طوى هذا التلميذ، وأمسك باللائحة يتفحص مدرس الرياضيات، الذي شعر بالإهانة عندما عاتبه ممازحا: (أنتم أصحاب الدروس الإضافية فرّغتم المدارس من محتواها)، رماه بنظرة زاجرة، زم شفتيه، وقطب جبهته، كأنه يشم رائحة قذرة، أعطاه ظهره ومضى، لم يتكلم.. لعله كتب؟!..

مد طوله في الغرفة الضيقة، وناجى الظلمة: (أسلس أيها الغريب مفاتيحك، من أنت حتى تختبئ لاطئا خلف كل زاويـة؟!).. ربما هو أستاذ التربية الوطنية؟!.. نظارته السوداء تشي به... جاءه معاتبا: (ألم تقل للطلبة إن

التناقض بين الواقع والدروس يخلق جيلا مصابا بالفصام.. يا أستاذ لولا محبتي لك لتصرفت غير ذلك، هذا خروج واضح عن مادتك.. أرجو عدم تكرارها..).. كم يكره النظارات السوداء، فهي تخفي مرآة الوجه، وتموه نافذة الأعماق.. سيكون أحد عناصر اللائحة..

تطاول الأستاذ قحطان، جرب مفتاح الكهرباء عبثا، عاد إلى كرسيه والأشباح تتوالد من ضوء الشمعة النائس، خرج وجه المدير مبتسما بمكر: (أستاذ.. أنت مكسب علمي للمدرسة...... وأنا أفهم الأوضاع المادية، كل المدرسين لديهم أعمال إضافية... لكن؟!! اسمح لي!!.. عملك ليس بقدر المقام) انه مرشح بقوة للائحة السوداء.

ازدحمت الأفكار في رأسه كأعشاب برية، ثم انحلت شيئا فشيئا حتى تلاشت، ليبقى وجه زوجته يتماوج مع الضوء العدوان، لا يعجبها العجب ولا الصيام في شهر رجب، فكيف يعزل اسمها عن القائمة؟!، لاعمل لها سوى تدحينه: (يا قحطان.. كن رجلا كجارنا.. لا يهدأ ولا يمل من العمل في البيت ـ اسكت يا ولد ـ صلح هذا الباب، قبل أن يشاركنا الشتاء سكنى الغرفة ـ قلت لك اهدأ يا ولد ـ استبدل خشب النوافذ بالزجاج واترك الضوء يزورنا ـ تنهض للعمل في المطبخ استجابة لنداءات الولد الجائع ـ افصل جزءا من المطبخ ليكون حماما، أحضر بضعة مسامير ودقها في هذه الرفوف لتثبتها ـ ثم تعود لتجلس على الأرض فوق الفراش الإسفنجي ـ اشتر لنا سريرا، لقد كسر ظهري من النوم أرضا، والجلوس أرضا، والأكل أرضا، حتى بات باستطاعتنا قضاء كل حاجاتنا زحفا ـ قامت إلى المرحاض ـ لماذا لاتحكم إغلاق هذا الباب لترد عنا الروائح النتنة، يا أخي حتى الخضراوات التي لاتباع معك هي التي نأكلها، الفضلات.. النفايات تجلبها لنا، اتق الله

يا أبو سعيد....) لحظة نومها تنطفئ الحرائق، فهل يستبعدها عن اللائحة السوداء؟!.

وهكذا بقي أبو سعيد صفصافة وحيدة على ساقية حياته، فمن هو صاحب العيون؟.. من هو سبب هذا الرعب المتعاظم؟!.....

2ـ نهاية محتملة:

فجأة يفتح الباب على مصراعيه تحت ضربة حذاء عسكري، تتحلق حوله مجموعة مسلحة: (قف أيها الأحمق) والفوهة السوداء تمر عبر القلب.. يفتشون الغرفة، يفتشون الأجساد، يفتشون الكتب، يطفئون الشمعة، يسحبونه في عمق الظلمة ، فتضيع المسالك والدروب.....

3ـ نموذج آخر لنهاية محتملة أخرى:

يقف أمام نافذة المطبخ الواطئة، يطل على ظلمة الزقاق، وعتمة المدينة.. في تلك اللحظة يصل التيار الكهربائي، فيضيء كل شئ. يهمهم: (الكهرباء حضارة)، يلمح: أسلاك التيار العام تحت النافذة تماما، تتقد فكرة تنبض بالحياة: (سأتخلص من العيون والرقابة، من المدير والأساتذة والطلبة، من كل هؤلاء معا، ومن أبي سعيد بالذات، فهو الأكثر معرفة بكل أسراري.. إنه الأوحد الخائن!!)، يمد يده إلى وسطه، يفرغ مثانته فوق الأسلاك العارية.. تقبض عليه الكهرباء، تتصلب أعصابه، يسقط فوق الأسلاك الفولاذية.. شرارة، فرقعة، وميض كالبرق.. تستيقظ زوجته ملهوفة.. تنقطع الكهرباء ثانية عن الحي الآمن، ويبقى أبو سعيد معلقا كتلة سوداء فحمية، في وسط الزقاق المظلم.

4ـ نهاية محتملة: ضرب الشيب رأس الليل، فاستيقظ الأستاذ قحطان. ارتدى أبو سعيد ملابسه، حمل ميزانه وسلته، ثم استقبل الحي الذي كان

هامدا عندما أحس بنظرات تزرع في ظهره، غصة.. لوعة.. التفت بسرعة، كان الشارع فارغا.. اقتعد أبو سعيد الزاوية، أمامه بعض الخضار مرتبة بشكل أنيق، بعد قليل: انتهكت الأصوات حرمة الصباح، وسرح البشر عبر الأزقة يبحثون عن رغائبهم، وعلى الموقف المقابل، شخص ببصره... ينتظرهما بلهفة، يهتاج صدره لرؤية العاشقين يوميا، يقفان أمامه حمامتين تتقافزان... يتغامزان، يبتسمان نشوانين بالصباح والناس والندى، يرى فيهما بشارة قادمة.. انهما حبه، حياته، خليج نفسه التائهة، يجمح لينتمي إليهما؛ زهرتان في ظلمة الكون، يتضوعان رائحة باللقاء، يأخذ من عبيرهما زاد الاستمرار بالحياة... انهما غصن فتي من شجرة عمره العجوز.. هاهي: تبتسم، تبدو طيرا على وشك الإقلاع.. هاهو: ينطلق في الزحمة ساحبا كتفه بين شخصين، تمتد الأصابع المرتجفة المتحفزة للقاء.. فيلتقي الكون مع الكون... لم يدر أنهما مراقبان، نسي العيون والمدرسة، وضعهما في حديقة: (عصفوران بين الأزهار) وسيجها بقلبه.. للوهلة الأولى رأى الشخص يغيبهما عنه، ظنها سحابة وتنفرج، لكن الشخص أخفاهما، وقف مواجها لهما، فخدش الطقس اليومي، بل لوثه، حدق إليه جيدا،طويل، عريض المنكبين، يحمل إلى جانبه سلاحا بدا واضحا تحت الملابس، هاهو يدفع الشاب، يهمشه.. يمسك الفتاة من ذراعها، يستدير ساحبا إياها إلى سيارته التي تملأ الشارع، يختفي وجهه خلف نظارة سوداء عريضة، فشعر أبو سعيد بسقوط قلبه... فراغ بحجم الدنيا ملأه من الداخل.. ما الذي يحدث؟!.. لاقريب ولا صديق.. إنه يعرف أهلها واحدا واحدا.. من أين جاء هذا القذر؟.. كيف دخل حياتهما؟.. لم يره قبلا.. مشى لاإراديا ذاهلا عن كل شئ، قبض على صدره: (أفلتها...)

ـ من أنت أيها الغبي؟..

نظر الأستاذ قحطان إلى وجهها متسائلا:

ـ قريبك؟!

بكل لوعة ودهشة، ودمعتها تتدحرج على الوجه البلوري، تستنجد بعينيها: (لا.. لا أعرفه) جاءت كلماتها شظايا حب متفجر، فنشب غضبه حريقا، صرخ بكل جوانحه المتشنجة: (عاهر) وبكل نزق ورعونة رمى الشخص أرضا، جلس فوق صدره، يصفع الوجه بكفيه، بينما كانت يد الآخر تمتد إلى جانبه تبحث عن شئ ما، أمسك بها الأستاذ قحطان ورفعها فبدا المسدس واضحا، عندها ابتعد المتحلقون للخلف... بينما اصطدمت بيد الأستاذ الأخرى حجر، فرفعه وهوى به على الوجه... تحطمت النظارة، وبانت عيناه مذعورتان، رفع الحجر ثانية، وشعر بالخدر يتسلل من كتفه إلى ذراعه، بدأت الأصابع تفقد القدرة على القبض... اندفعت لحظتها عزيمة أبو سعيد لتساند الأستاذ قحطان.. سافرت الضربة في الرأس، مرة.. ثم مرة.. ثم مرة.. حتى ظهرت مادة بيضاء لزجة، فتلوثت ببقع الدم الحمراء.

■■

(12)

البريق

سيدي المحقق:

اتهموا عناق المسكينة بدم هابيل لينقذوا قابيل، وهاهم يريدون اغتصابي واحدا تلو الآخر، ثم يرمونني بالخطيئة، ويسعون لتنظيف العائلة بعد أن كنت ملكتهم المتوجة، حتى زوجاتهم اللواتي كن وصيفاتي، يطالبن الجميع برفع راية الدم، تصور يا سيدي كيف تكون الدماء رمزا للأخلاق، وتصور كيف ينقلبون ضدي ويستيقظون فجأة على قذاراتهم، فيعقدون الاجتماعات في البيوت التي منحتهم، ليخلصوا إلى أفضل السبل للقضاء علي، دون تلوث ملابسهم التي أعطيهم، أنا التي أشعلت الأعياد في منازلهم، والتي توجهوا إليها بدعواتهم الحنونات الخنوعات، صرت الآن عاهرة، وشبقة، أحتاج إلى عـــ.. بلاستيكي، وهم من صاروا من (ورا..) يشمخون برؤوسهم، ويشهرون سيوفهم، فمن منهم سيجرؤ على قتلي؟: أبي الذي تأنق بطربوشه وقمبازه، جرني خلفه وأنا برعم لم أتفتح بعد، ليسلمني خادمة في المدينة؟.. أم أحد أشقائي الذين يحملون ملابسهم ودرجاتهم العلمية من تعبي؟.. أم شقيقاتي اللواتي تزوجن، وأنا أحلم حلما شهريا بالعودة إلى العائلة؟.. لعله زوجي الذي يهددون به (برهوم السكير)، كما يدعونه، برهوم الذي أعجبني بلسانه الخشبي وعينيه المطفأتين، الملتزم بالبيت وطقوسه الصامتة: تبغ فاخر تستحق كل سيجارة منها الشم على طولها، عبوة مشروب تثير مط الشفة السفلى إعجابا، فيسحب منها زجاجة محجرة، يضعها أمام عينيه ليمر ضوء شفيف عبرها، يصب كأسا، بينما يراقب جليسه منتظرا إشارة الاكتفاء، يوزع الأطباق العامرة بالمشاوي المنوعة، مع الخضراوات

والمكسرات، يأكل ويشرب بملامح حيادية تماما، لاتساؤل ولا همهمة، هكذا يعيش جنته، لا داعي لتعكير مزاجه؛ وهو اتفاق غير معلن: يصهل في بريته دون ازعاجات... ويحترم ضيوفي دون تردد... هكذا مضينا معا منذ الليلة الأولى، وقد تدبر سعيد بك أمر الزفاف، وسعيد بك كان مخدومي، ورآني أتفتح أمام ناظريه، رباني ثم زوجني، وبقيت خادمته حتى الآن.. رجل خيّر أفضاله تغمرني وأهلي جميعا.. يده طايلة، يوظف ويطرد، يسجن ويطلق، له مكانته المرموقة، وسياراته السوداء، ومجموعة مرافقته... مفضّل علينا.

سيدي المحقق:

هاهم يشوشون صورتي أمام برهوم، فيقف مرتبكا متسائلا.. للمرة الأولى يرتبك ويتساءل، ويتهمني بنقض العهد، وللمرة الأولى أتكلم، أفضفض، كأنني انتظرت لحظة البوح منذ الأزل، فاعترفت، وكم كان الاعتراف مريحا لأعصابي المشدودة، فانجرفت مع سيل التفاصيل، وكيف اغتصبني سعيد بك للمرة الأولى، وكيف أهداني إلى برهوم الذي دخلني ليلة العرس ثملا حتى أقصى أصابعه.. وكيف.. و.. وانتظرت صفعة، توقعت انفجارا، توسلت محاولة لملمة كرامته المهدورة.. وفعلا بدأت التماعة تتسرب إلى عينيه المطفأتين، فأمعنت الوصف، حتى لحظة اكتمال البريق.. وأنا يا سيدي خبيرة ببريق العيون: البريق المتوقد في عيني والدي عند بزوغ فكرة الخدمة في ذهنه، والبريق المتفجر في عيني سعيد بك عند ملاحظته اكتمالي، والبريق الحالم في عيون الشباب، وبريق النشوة لحظة السعادة، وبريق الحسد في عيون الأخريات.. فميزت فورا بريق عيني برهوم، كان بريق الشهوة والامتلاك، ومد يديه ليأخذني، فصفعته، صفعة واحدة فقط، لكنها طافحة بالغضب، يريد اغتصابي.. حتى برهوم يغتصبني؟؟؟ سيدي برهوم يريد اغتصابي... جميعهم يريدون اغتصابي الواحد تلو الآخر...

■■

(13)

استمرار الهروب

.... عندما تأكد علماء اللغة و الاجتماع و التاريخ و الآثار، أن عمر الشيخ سعيد يتجاوز الأربعة آلاف عام، لم يستطع أيا منهم المغامرة و إبلاغ الصحافة أو وسائل الإعلام شيئا، لأن ذلك يعني وضع مستقبل المصرح على كف عفريت؛ لذا أصروا بالإجماع: استكمال فحوصا جسدية للشيخ، تتجاوز الإمكانيات المتاحة في القرية؛ فتم البدء بإجراء تحضيرات غاية في السرية لنقله إلى المدينة، بالتوازي مع إجراءات إقناع الشيخ بالانتقال الإرادي، لكن مقدار الأخطار التي أحس بها من الاستجوابات المتتالية السابقة، والوجوه الغريبة التي تتصنع البسمة، جعلته يعلن: عدم رغبته بالسفر؛ فوضعت هذه الرغبة موضع التقديس من أهل القرية جميعا، وباتوا لا يفارقونه لحظة واحدة، يتمسكون بمجالسته والاستماع إلى حديثه المنساب بعذوبة وهدوء، بينما يتأملون جسده النحيل الشاحب، وذقنه البيضاء المسترسلة قطنا على قمبازه الناصع، فعادت الحياة إلى سهرات القصر الليلية بعد فتور وانقطاع؛ الأمر الذي كان سيسعد العم حبيب بشكل باهر لو تمّ في زمن أبكر، إلا أن استغراقه في مشروع الانفراد بالقصر، جعله يستقبل الزوار ببرودة، ويعامل الشيخ بلا مبالاة، كأنه يقول: تأخرت يا شيخنا في لمّ الشمل؛ ووجد نفسه يتعاون لحدود التآمر مع ابن شقيقه المرحوم كامل آغا، ليعلن

في يوم اختفى فيه الشيخ سعيد: دعاه العميد مالك لزيارة العاصمة، ثم شرع في اليوم التالي بنقل أمتعة الشيخ من مكان إقامته في القصر، إلى غرفة تفتقد الضوء والإطلالة، ينفتح بابها مباشرة على زقاق صاعد إلى مقام أحد الأولياء عبر بيادر القرية، و لتعويضه عن (المضلّة) أهداه كرسي "ديبو" الضخم، بعد أن أضاف إليها مسندين جانبيين وآخر خلفي ليتناسب مع جسد الشيخ الضئيل، مضيفا للغرفة كل وسائل الراحة والاستقرار الممكنة، فارضا الواقع الجديد ،مستغفرا ربه مرات عديدة، مرددا ما أمكنه من آيات الغفران والرحمة.

لم يكن أحد في التربة أو القرى المجاورة يعرف للشيخ سعيد زوجة أو ولدا، و لا أبا أو أما، وأكثر المعمرين يؤكدون: هذا هو شكلا وهيبة منذ ولدنا؛ ومع هذا فقد ترك عليه الزمن عليه آثار رجل ستيني، وبقيت ملامح وقار تتنازع السلطة مع تجعدات تغزو الوجه الذي حافظ على اللون الأبيض الشاحب رغم الشمس التي ما فتئ يتعرض لها مذ كان صغيرا، وتعبير (كان صغيرا) مجازي فلم يستطع أحد تحديد هذا الوقت، حتى روايته التي لا تتوقف عن حياته، أفلتت ميلاده وطفولته خارج الزمن، وما عرفه الجميع: أنه كان ملاحقا باستمرار، ما يكاد يستقر في مكان حتى تهاجمه الدوريات الباحثة عنه، وكثيرا ما أشيع مقتله، إلا أنه سرعان ما يظهر في بطن واد مقفر، أو على رأس جبل موحش، ليبدأ من جديد، يداوي جروحه، ويطمئن لعزلة المنطقة، ويتفقد من بقي من مواليه ، لينطلق ثانية معهم، مستعيدا شبابه وزمنه، منقطعا للصلاة والعبادة والصيام الطويل والأحاديث التي لا تخرج عن: الدين والاستغراق في الله وسيرته الشخصية التي اكتست ملامح تاريخ متجذّر، عايش من خلاله أرسطو وأفلاطون و أنبياء التوحيد؛ بل أن

بعض الأحداث أكدت تواجده في أمكنة متباعدة خلال نفس الوقت، ولم يكن هذا ليشغل أحدا، بل أنه كان يبدو الحالة الطبيعية لمريديه.

كثيرا ما استغرقت الشيخ طمأنينة الذكريات مع "آه" طويلة:.... ما أحلى الأيام الماضيات؛ وهو يسهم بنظراته، كأنه يرى الماضي السحيق ويعايش شبابه وحيويته، مقدرته وحركته... ثم تأبى الملامح إلا أن تتعكّر بعد صفاء، فتنطلق تنهيدة حرّى ،ليعبر بعدها: عن طعنة سيف اخترقت ظهره أثناء الصلاة، أو السم المدسوس بعشائه أو ضربة مقصلة تفصل الرأس الأشهب، أو بيداء قاحلة تجفف الأعضاء حتى التذري؛ مستفيضا بالحادثة التي أفقدته سمعه، عندما تسلق "حجاب السنديانة" هاربا و مختبئا، واستظل الشجرة الوحيدة منقطعا لعبادته، فما شعر إلا والأرض تهتز أو تدور، وكأن الليل والنهار يتعاقبان بسرعة الرمش، وهو يحزم جذع السنديانة بيديه، وتخرج من أضلاعه صرخة مستجيرة لا إرادية: يا الله، حتى استقر "الحجاب" في بطن الوادي قاطعا مئات الأمتار تدحرجا، وفي منطقة ارتكازه نبقت عين ماء ملأت حفرة السقوط، كما ترك "الحجاب" عند السفح، أسفل القرية، ينبوعا صغيرا، لازال يظهر ويغيب ليذكّر بالحادثة: (ومن وقتها لاأسمع شيئا سوى نداء "يا الله" يتردد في ذهني بأشكال مختلفة: مستجيرة، خائفة، تائبة أو متوكلة)؛ ثم يتابع فيض الذاكرة المزدحمة، بالرغم من إجادته القراءة والكتابة، إلا أنه لم يعتمد مخطوطة، بل حرّم كتابة مشافهته، متذرّعا: الذاكرة أكثر حرية ونشاطا، أما القرطاس فقد يتعرض للتزوير والتحريف مع ضمانة مصداقيته، وتوكيدا لمقولته هذه كان لا يحاور إلا الموثوقين، أو من يقدمهم موثوقون، فالحوار مع الجهلة خطيئة لا تغتفر. وكان هذا حكما نهائيا تعوده المريدون والموالون، وانصاعوا له،

كما فعلوا مع كل ما نهى عنه، أو ذكر به، أو حضّ عليه، حتى لو تم ذلك في الواقع أو عبر أحلامهم، فلا يجرؤ أحد على مخالفة أو نكران، خاصة كبار السن... وكان هذا الاحترام يتبدى تبجيلا لدى الشباب، وخوفا عند الصغار، فمكانة الشيخ أعلى من السؤال.

لم يتمتع الشيخ سعيد في العاصمة، بالرغم من كون العميد مالك من الموثوقين الذين يطمئن للتعايش معهم، إلا أن بهرجة الألوان وصخب الحركة وروائح المختبرات أفقدته التركيز والرغبة، أضف إلى ذلك تعدد الزيارات واللقاءات والفحوصات، مع الصدمة الكبرى عند عودته إلى القرية ليجد نفسه أمام الأمر الواقع بتبديل مسكنه، فكان متكدرا لدرجة أنه أحجم عن أي رد فعل، بل استسلم بالطريقة ذاتها التي سلم بها جسده للآخرين منذ أشهر، لكن يوم العودة هذا بات صدعا في حياته، إذ بدأت صحته تسوء بشكل ملحوظ؛ ومع أن البعض اعتبر: الإقامة الجديدة هي السبب، إلا أن الأكثرية أكدت مسؤولية زيارة المدينة عن تدهوره الصحي، فقد تم الاستيلاء على جسده هناك، بغية الكشف عن سر العمر المديد، ومعرفة حالته بعد هذه السنوات الطويلة التي يقدرها البعض بالآلاف، مما أثار دهشة الأطباء، فأكثروا من التحاليل والخزعات والتخطيط والتصوير الشعاعي، لتحديد ولادة هذا الجسد العجيب والسليم، فنجحوا بتذكير جسد الشيخ بالأمراض التي لم يكن يعرفها سابقا، لدرجة أن بعض أهل القرية ادعى أنه التقط جراثيم المدينة وأمراض المشفى، أما ذوي النوايا الأكثر سوءا بثوا إشاعة تفضي إلى أن الأطباء حقنوه بمسببات الأمراض لدراسة مناعته، وكان أعظم ما أصابه نزول غشاوة ـ بدت متعمدة ـ على عينيه، قصرت عنها كل العلاجات التالية، ولما كان التواصل معه لا يتم

إلا عبر إشارة متقنة أو كتابة سؤال، فإن الضعف البصري الحاد والمزمن جعل الحوار مستحيلا، فشخصت عيناه في لحظات ابتهال مديدة، ولم يعد حديثه إجابة على سؤال، أو حلا لمعضلة، أو تدخلا في مسار حدث، بل بات استرسالا وتداعي خواطر، مما أفضى إلى ثرثرة لا معنى لها، أو دعوات متكررة لمن يقدم خدمة عابرة في غرفته الجديدة، فتعمد أهل القرية حمايته من عيون الصحافة والتلفزيون واللقاءات بإخفائه تماما، بل حتى نكران وجوده أصلا.

قيم القصر كان المسؤول الوحيد سابقا عن تأمين متطلبات الشيخ، حتى أثناء حياة كامل آغا، والذي استفاد كثيرا من معيشة الشيخ في قصره ليدعم سلطته، إلا أن معرفة كل ذكور القرية لعادات الشيخ وأسلوب معيشته، وكيفية قضاءه لليوم، جعلت من اليسير عليهم الاستمرار بتأمين متطلباته حتى مع وجود حواجز اللغة والرؤية ، فبقعة الشمس تعني التواجد خارجا، والإفطار المبكر، أما طعام الغداء فيأتي بعد وقت صلاة الظهر، والعشاء في وقته كذلك، بالإضافة للنظافة الشخصية، وترتيب الغرفة وتهوئتها، ولم يقتصر أحد بعينه على خدمة بذاتها، خاصة بعد أن أصاب جسد الشيخ الوهن وآلام المفاصل، مما أفقده إمكانية المبادرة بالخروج مللا، أو الدخول بردا، فقام أول العابرين بحمله من سريره ووضعه على الكرسي الثابت خارجا، بينما يجتهد مار آخر ـ حسبما يرى من حالة الطقس أو غياب الشمس ـ بإعادته إلى سريره، ويوجه الشيخ ذلك السلوك بدعوة مقتضبة بالخير للفاعل ، ومع مرور الزمن تحولت تلك الدعوة إلى همهمة لا تفصح عن رضا أو رفض، ثم بدا عصيان الهمهمة فكأنه غرق فيصمت أبدي، ومع افتقاده للحركة الذاتية لم يلاحظ أحد كمية ما تبقى من طعام في صحنه

لأن من يحضر وجبة يختلف عن صاحب الوجبة التالية ؛ فبينما كان الوعاء يبقى شبه ممتلئ في الآونة الأخيرة ، إلا أن تطوع مراهق يتيم على ملازمته، بات الوعاء يبدو فارغا دائما ومغسولا وجافا، ينتظر الوجبة التالية، ومع اشتداد البرد وهطول ثلوج غير متوقعة، لم يلحظ الرجال تغيبه عن الكرسي معظم الوقت أولا، وغيابه تماما تاليا، بينما استمر الشاب المعافى بالتنظيف والترتيب والتهوئة، وشعر الآخرون بالسعادة لوجود الشاب، فما اعترضوا على مشاركته الشيخ غرفته للنوم ولا على وقوفه على الباب وحيدا يرد السلامات ويتلقى الأحاديث ويدعو للدخول؛ فالشيخ بات بحاجة لخدمة مستمرة يؤمنها ـ عنهم جميعا ـ الشاب المتورد صحة ، والممتلئ شبابا وحيوية...

■■

(14)

الكنز

... وبإخراج متاع الشيخ سعيد، استطاع العم حبيب إخلاء القصر من آخر قاطنيه، فشرع بتنفيذ مخططه التالي، والذي لم يكن بالإمكان مروره دون اضطراب في مواقيت القرية التي امتطت صهوة الجبل، وتوزعت بيادرها القمة ناعمة مستديرة كأنها أرغفة خبز نثرت لتبترد، ثم انسكبت بيوتها على السفح الغربي متلاصقة كعنقود عنب، في محاولة منها لإمساك الشمس الغاربة في خط البحر الواهي، الذي يبدو من فرجة جبلين يقودان الوادي إلى نهايته البحرية.

كان العم حبيب مؤقت القرية، الساعة التي تدق بانتظام ورتابة وعناد، يحدد بتصرفاته الأعمال، فيعرف الأهالي اقتراب الفجر عندما يشد إلى حماره الرمادي (الجلالة والشريزة) وينزل بطن الوادي يملأ (دبليزين) بالماء البارد العذب، ثم يشق درب الصعود، دون شعور بثقل السنوات: حفظت الحصى والعثرات، الأغصان اليابسة والخضراء، التربة البيضاء والحمراء، ثمار شجرة التين هذه، وخرنوبات تلك، وحبات (المراب) المختبئة مـن قاطفيها.. ومع الفجر تماما يصل ساحة القصر عائدا، فيطلق حماره، ويصلي، ثم يقوم بجولة على حواكير التبغ، يرى حاجتها من فلاحة أو شتل، تفريع أو قطاف، تقليب أو قلع، وعند عودته في الضحى، يحمل سلة عنب أو تين، توت أو خرنوب، يضعها على المصطبة الواسعة بعد نشرها في طبق

القش المزركش ليستضيف منها الرائح والغادي، ويحضر الإفطار، ثم يباشر أعمال النظافة والترتيب، ليتحسر على أيام المساعدين والمتطوعين وعمال السخرة: كانت أيام تستدعي الكثرة، ولا يشبهها إلا حالات صيفية نادرة يأتي بها أولاد شقيقه وأطفالهم،عدة ليال تحيا فيها الأيام الغابرات، وتكتظ السهرات بطالبي المعونة من العميد مالك ساكن العاصمة، أو المهندس محمد قاطن مركز المحافظة؛ أما الآن فتتأثر ـ معظم الأوقات ـ بالزمن وخلو القصر من سكانه، وهذا يزيد واجباته من تحضير للغداء، وتنظيف الغرف، ونثر الحبوب للحمام والدجاج... والانتباه إلى حالة بعض الخرفان والعجول والأبقار وملاحقة (شك) أوراق التبغ، وتعليقها وتقليبها ونقلها، ثم قبيل المغرب يصف القناديل بأقفاصها الزجاجية إلى جانبه، يحضّر قماش التنظيف وقطع القماش اللازمة، يتربع الأرض، يخرج القناديل من أقفاصها، يفرك الزوايا النحاسية مزيلا بقايا الفراشات الميتة، وينظف الأقفال الصغيرة بملح الليمون، يدعك حلقات التعليق جيدا، ثم يمسح ألواح البلور بقطعة قماش رطبة، ويجففها بالورق، ويلمعها بجلد غزال يحتفظ به منذ سنوات؛ يرفع القفص مواجهة الشمس الحمراء، يرقبه جيدا، يزفر بقوة على أحد الألواح معيدا دلكه ومسحه وتجفيفه؛ يضع القفص جانبا، ويتناول حبابة القنديل البلورية الرقيقة والهشة محاذرا، وبحرص يحرك قطعة قماش ملفوفة على (مسلّة) داخلها مزيلا الهباب، ينفخ فيها ويمسحها، مرة ومرة، حتى لتكاد تذوب وتختفي من فرط الشفافية، يقص الفتيل، يضيف الكاز، يوزع القناديل في أرجاء المصطبة معلقة في أماكنها التي اعتادتها؛ يصف الكراسي متلاصقة بالقرب من حافة المضلّة، وفي صدر المجلس يضع الطراريح، ويزيد عدد المساند في المكان المخصص لكامل آغا،

ثم يتربع بجانبه ليتفحص إبريق الشاي الأزرق الضخم، والكؤوس المصفوفة والمقلوبة على طبق القش المستدير والمتسع؛ يصلي ؛ يزدرد لقيمات العشاء؛ يتخفف من أثقال النهار، ويختتم الأعمال المؤجلة ؛ يشعل القناديل ويعير اللهب بدقة محترف معلنا الدعوة إلى السهرة... في أيام الكثرة سرعان ما تمتلئ المضلّة بالرواد، بل و تمتد حلقات صغيرة بعيدا عن الإضاءة ـ تحت السنديانة ـ لمجموعات من المراهقين، يدفعها الفضول لسماع الأحاديث والأخبار، وبعض الأغاني والأراجيز، وقد يشتركون بالمساجلات الغنائية عبر مطربهم الصغير سمير، والذي غالبا ما كان ينتصر لولا مسحة الخجل التي جعلته هدفا سهلا لأي مطرب يدفعه الغضب و خشية الهزيمة ليرد بقصائد تحمل إيحاءات البذاءة فينسحب سمير إلى صمت الليل.

في وقت لاحق لأيام الكثرة، وبعد موت كامل آغا، وانشغال البقية بأعمالهم في عدة مدن، لم يعد يعكر صمت ليالي الصيف سوى صرخات الأولاد الصغار، يتراكضون عبر الحواكير المقلوعة، يمارسون ألعاب: (جيت) و(الضبعة) والاستغماية، ثم سرعان ما تتلاشى هذه الأصوات، بينما العم حبيب يرتشف الشاي وحيدا على المضلّة المنارة، تحت شجرة التوت، يسهو مع الأوراق الخضراء، ويحاول تمييز زول رجل يتحرك في العتمة، بينما تصطف الكراسي تتذكر الأجساد، وتترامى المساند على الأرض عطشى للمتكئين؛ هنا مجلس كامل آغا بهيبته صاحب الاسم الوحيد الذي لم يقبل التصغير ،يليه مطرحه الخاص، و إن كان شقيقه المرحوم كامل يناديه أحيانا: حبيّب، غاضبا، أو متحبّبا، لكن الآخرين لا يجرؤ ون على ملامسة ذلك النداء، إلا سرّا، عدا زريقة زوجة المرحوم،... وهناك مقابلا له كرسي ديبو الذي صنع خصيصا ليتبع جسده، والذي لا يمكن خلو السهرة منه لروحه الطريفة الحاضرة،

ونكتته اللاذعة، يجاوره كرسي "سليطين" مهرب التبغ الوحيد، وحكاياته عن المغامرات، والهرب، والدروب التي لا تخطر على بال الشياطين، وأساليب المراوغة، بل والمقاومة المسلحة لرجال (الورديان) ، ثم موقع الشيخ سعيد، ومكان المختار الذي يعمل حدّادا وبنّاءً، كما أنه صهر كامل آغا... في الزاوية وتحت الربابة يتربع مطرب السهرات حميدان، ويقابله بعيدا من يحضر لمساجلته... ويكبو العم حبيب ، يغالب النعاس وحيدا، لكنه يصر على المضي دوما في سهرته حتى وقتها المعلوم، فهذه سلطته التي اكتسبها حتى على حياة كامل آغا: متى تبدأ السهرات، ومتى تنتهي، متى تكون خارجا، ومتى تكون في المضافة ضمن القصر، وعدد القناديل المضاءة في المضلّة؛ أو في الطابق الثاني للضيوف والـزوار، أين يضع (أكواز) المياه، وموعد الشاي والقهوة، ومن يشرب هذه أو تلك؛ لقد اعتاد على ممارسة ذلك غريزيا، دون تفكير أو تحليل؛ تكفيه نظرة متأنية إلى السماء والأفق وشجرة التوت، ليحدد ما يريد، وفي هذه السهرة، كأنه غفا، فرأى أكياس الذهب تدخل القصر ولا تخرج، رأى النقود تتراكم بعيدا عن الأنظار، ورأى وجها مألوفا، فاستيقظ جافلا على نداء "ماريا" له، بصوت خافت، كانت همسة كالملامسة، تعوّذ وحوقل وبسمل، مبعدا "ماريا" ـ التي كان من الممكن أن يتزوجها ـ عن ذهنه، وتذكر قسمه: لن أفكر فيها مطلقا؛ فاسترسل يرقب الفراشات وهي تحترق بضوء القنديل وتهوي ، تصطدم بزجاج القفص ، لكنها تصر على الدخول حتى تحترق بضوء القنديل وتهوي، نعم تحترق بضوء القنديل وتهوي... ولمّا لم يكن معتادا على التفكير، ولا ضبط ذهنه، انقاد بسرعة لحلم سطع في داخله كنافذة مضيئة: لم أكن شريكا ولا أمين أسرار ، بل مرابعا حقيقيا؛ صحيح أنه شقيق الآغا، ولكن أي مرابع يستطيع

الحلول محله؛ يحفظ الأسرار؟.. هه.. أية أسرار؟.. ومن يجرؤ البوح؟.. يجهز السهرة؟.. يشرف على الطعام؟.. يحضر الحفلات؟.. يمسك بعض الحسابات؟ .. يرافق الآغا بعض سفراته: سيرا على الأقدام، خلف حصانه؟.. لماذا..؟.. انه الشقيق الذي لا يخون: عدا بعض السقطات في صغره، كان يسرق قليلا من السمن وبعض الزيت والحبوب لأشقائه الآخرين... وفي النهاية، ماذا نجم عن خدماته لهذا أو هؤلاء؟.. لقمة الطعام؟.. النوم..؟.. بعض سلطة جوفاء؟.. حتى أشقائه وأحفادهم لا ينظرون إليه كقريب بمقدار ما يرون فيه قيما على القصر وحارسا له، وغدا لقب "العم" مجرد اسم لا يعبر عن درجة قرابة أو صلة دم.. وهكذا أحس تماما أن ما يقبل عليه مبرر بشكل كامل، وحصوله على كنز الأموال المخفية لن يعادل أجر مجهوده عبر كل السنوات السابقات.

لم يحدث للعم حبيب أبدا أن فكر: ماذا عن الغد ، لذا كانت خطته التي وضعها هي الأولى في حياته، وصمم على الانتهاء منها بشكل سريع، قبل اشتداد الصيف وتزايد زوار القصر من سكان المدينة؛ فتغيرت عاداته تماما، الأمر الذي أثار الريبة لدى أهالي القرية، ليس بالعم و إنما بصحته وصفاء ذهنه، فهو الأكبر سنا ـ إذا استثنينا الشيخ سعيد المستثنى أبدا ـ بين الباقين على الحياة، كما أنه دليل القرية ومرشدها، فلقد اعتادوا على الانقياد خلفه، من الاستيقاظ حتى مواعيد الزراعة والاصطياف والقطاف، فاربكهم ذلك، وأربكتهم ردوده الجافة عن همته وأحواله؛ فقال أحد الراشدين: من يملك لسانا لا يضيع؛ أما المتعلمين: في الكتب حل لكل الأسرار؛ وهكذا توقفوا عن ملاحقته، وسمحوا له بالعزلة التي طلبها عن طريق الجواب الوحيد على لسانه: لا أعرف.

عندما همّ العم حبيب بالتفتيش بحثا عن الذهب والأموال، اكتشف لأول مرة كم كان القصر كبيرا، وغرفه فسيحة ومتلاصقة ومتعددة، تنفتح كلها على ساحة عظيمة تبلطها صفائح حجرية متقاربة، يشغل الجزء الشمالي منها المضلّة الواسعة : مطيّنة ومدحولة؛ ونظرا لانحدار الجبل، فان المضّلة تبرز من الأمام مرتفعة عن سطح الأرض، فتم تجويفها، واستعمل قسم غرفا للمؤونة، وقسم آخر (أقنان) دجاج، أما الجزء الأخير جعل زريبة لنوم الأبقار... الطابق الثاني ينحسر قليلا ليترك أمامه مجالا لمضلة تستعمل للضيوف والزوار الأكابر، بينما خلف القصر ـ من الشرق ـ حاكورة كانت ملعبا لخيول كامل آغا وضيوفه، واحتلت جزءا منها بمحاذاة جدار المنزل مواقد ضخمة تستعمل في الولائم و الأعياد، أما التنور فيستند على الغرفة القبلية، وفي منتصف الساحة تبرز السنديانة العملاقة ـ التي كانت معلما للقصر من بعيد ـ لتفرش ظلالها على الساحة وأجزاء من القصر و المضلة، بينما تقوم شجرة توت بتظليل الجزء الآخر من المضلة؛ وبتعدد الأماكن المشكوك فيها كان عليه وضع أولويات، تبدأ من غرفة كامل آغا الشخصية في الطابق الثاني، مرورا بغرفتي زوجتيه، ولا تنتهي بجذع السنديانة الضخم والذي طالما توارى فيه المرحوم، فأخذ يفتش الملابس والعرازيل والسمندرات، بحث في قضبان الأسرّة النحاسية و التبّانة، المخدات والفرش، الطراريح والمساند، صندوقي العرس والنمليات، عنابر الحبوب ودسوت الطبخ، نكش المواقد، نقر على السواميك ونحت ما ظنه فراغا، نبش الأرضيات واستخدم المعول، تفحص الجدران ومسحها، طرقها بالأزميل وكشف ما خمّنه مستودعا، أزال الزوايا ورفع عضادات الأبواب... لم يهتم بالإصلاح بل اندفع مهووسا، وكلما أنهى مهمة ازداد تفاؤلا بفكرة جديدة

... نسي الطعام والشراب والدجاج والحمام والأبقار، فدخلت هذه تبحث في الفوضى عن التبن والحبوب المنثورة والمدلوقة من عنابرها؛ حتى أنه في لحظة التشقق الأولي لم يسمع شيئا، ولم يع الطقطقة المتتالية في أرجاء القصر، ولم ينتبه إلى فزع الحيوانات وفرارها، ولم يلحق الصراخ عند انهدام كتلة على رأسه... ثم لم يستطع رؤية أهل القرية يتنادون و يتراكضون نحو الخرابة التي خلفها الانهدام المفاجئ وهم يصرخون : العم حبيب....

■■

(15)

على المكسر يا بطيخ

خترق نداؤه النافذة مع رفعنا لآخر طبق من الغداء، فاسترخت زوجتي نصف مستلقية على الأريكة وقالت :

ـ والله يستحق الوقت بطيخة حمراء و باردة.

مددت رأسي عبر قضبان النافذة أستوقف البائع، فنهرتني:

ـ اذهب إليه يا رجل وإلا خدعك...

رأيته يتلمس كومة البطيخ فوق العربة الخشبية، ويجادل زبونا حول السعر، ثم يأمر بغله بالهدوء.

ـ يجب أن تساومه على السعر والنوعية..

كان البغل الذي تغطيه الصفائح المزركشة بعناية من رأسه حتى ذيله يتعرض لمضايقات كلب شارد.

ـ أتريد الشراء من النافذة؟!.. والله أنا متأكدة أن جميع الباعة في الحي يعرفونك جيدا، وهم يهللون لرؤيتك: جاء الرزق... جاء الأهبل.

صدمتني كلمتها الأخيرة، بينما كنت أقارن البغل بخيول كسرى الحربية، فالتفت إليها بفظاظة، وكدت أجيب: لابد أن أهلك أول من قالها عندما جئت أخطبك، لكنها تداركت ملامحي الصارمة بابتسامة باردة دون حراك،

فاعتبرت ابتسامتها اعتذارا مبطنا، وحسما لجدال حار في وقت الظهيرة القائظ خرجت من الباب المطل على الزقاق مباشرة.

كان الخلاف قد تطور بين البائع الذي يصر أن البطيخة حمراء والزبون الذي يعتبرها بيضاء، فملأت أصواتهما الزقاق المهجور حتى من الظلال، باقترابي أهملني الشخصان، وارتفعت حدّة الجدال والعناد كأن كلا منهما استقوى بي.. وزاد الضجيج عندما بدأ الكلب ينبح البغل ويدور حوله، رفع البائع سبابته في وجه الآخر مهددا: ضع النقود وخذ بطيختك... ثم ثناها مشيرا إلى سطح العربة الخشبي، بينما امتدت يده الثانية لتسحب سكين المكسر عن العربة، ويخفيها خلف ظهره بحركة مسرحية تهديديه... ضحك الزبون بفظاظة وكشف عن كعب المسدس عند وركه وقال محركا أصابعه كأنه يكش ذبابة: (روح استرزق روح)؛ في هذه اللحظة كان البغل قد وجه رفسة إلى بطن الكلب، فطوى ذيله بين ساقيه وابتعد ينوح تاركا خلفه الزقاق، أما العربة فقد هزّت وترنحت فسقطت بطيخة الزبون على الأرض متشظية وبدا لبّها الأبيض المزهر علّق الزبون (قال حمراء قال) ثم رحل.

لويت عنقي صوب باب المنزل منسحبا لاعنا البطيخ والسكاكين والسيوف و(الشنتيانات) والنساء: تنعم بالظل وترسلني إلى الأخطار: أقلها ضربة شمس وبعضها ضربة سكين...

فاجأني صوت البائع و كأنه يراني للمرة الأولى...

ـ أهلا أستاذ... أؤمر

تظاهرت بإبعادي لبقايا البطيخ بعيدا عن منتصف الزقاق، وقلت دون النظر إليه:

ـ بطيخة على ذوقك

تكرم... عجبك هذا الفلم، يأتينا كل زبون وفي يقينه أننا نمتلك معمل بطيخ، نصنع ونغش، هل أنا بقلبها يا أستاذ، هذه خلقة الله، وهذا حظه، سبحان موزع الحظوظ.

هززت رأسي تعبيرا عن التضامن، بينما راح يطبطب على واحدة انتقاها وضغطها بالقرب من أذنه، ثم وزنها...

ـ شو ما عرفتني أستاذ؟! أنا أبو شاكر!! بياع المازوت.

فخطرت لي زوجتي ودمدمتها على المازوت الذي يطقطق طيلة الشتاء في المدفأة منذرا بانفجار قادم، وتذكرت رؤيتي للبغل سابقا...

ـ أين السكين؟!..

جفلت، وأصريت على الاكتفاء بحظي مغلقا، وبالغ أبو شاكر بإكرامي عبر شقها طوليا، موجها إلي الفتحة ضاغطا على الجانبين ليتيح لي الرؤية.

كنت أتعمد ألا أثير غضبه، و انفد ببطيختي دون مشاكل:

ـ ممتازة

مددت يدي أتناولها، والأخرى انقده حقه؛ بينما أخذ المبلغ، واحتفظ بالبطيخة لينظر إليها:

ـ لا..لا.. ليست جيدة سأبدلها

ـ يا أبا شاكر، إنها جيدة.. يقولون أن البطيخ الزهر حلو المذاق.

أقسم وهو يرفع خنجره أمام أنفه:

ـ والله لن أعطيك إلا واحدة حمراء لو فتحت الكوم كله..

قلت في نفسي: حظي وأعرفه.. ألم تعترف بتقسيم الحظوظ؟.. في الوظيفة بطيختي صفراء، و مع زوجتي زهرية، ومع أصدقائي لا لون لها، سبحان الله.. لن تراني مع بطيخة حمراء أبدا..

وشهر سيفه على واحدة أخرى

ـ يا أبا شاكر، أنا أريدها هكذا تماما...

لاحظت تردده وارتباكه، فظننته اقتنع معي، لكن سرعان ما تسللت الدهشة إلى عينيه المتسائلتين ثم قرر:

ـ لن أحاسبك إلا عما تأخذ..

ولم يكتف بشق البطيخة الثانية بل أخرج منها مستطيلا،

وكانت زهرية، فوضعها جانبا يبحث عن ثالثة... ألمحت له:

لن ترى واحدة حمراء.

علا صوته ممطوطا: كأنك تقول بضاعتي فاسدة.

نفيت كلامه: بعضهم حظه في فمه وبعضهم في أماكن أخرى،

ثم يا أخي أنا أحب الزهر.. أريدها زهرية

ـ (شو أستاذ؟.. نحنا مو مسخرة)

أدركت المطب الذي علقت به فسارعت للخلاص

ـ كما تريد.. تصرف على راحتك، أنت تعرف الحر الشديد وال..

ورفع (شنتيانته) يهز رأسه:

ـ (شو هالعالم)؟!

ـ أعطني واحدة سليمة، لن آكلها فورا، سأتركها في البراد...

كأن جملتي الأخيرة كانت بمثابة حبل الخلاص، فأقلع عن الكسر وقذف لي بطيخة لا على التعيين بينما تشاغل بلملمة بضاعته، ناولته النقود ثانية، وضع الثمن في جيبه، ثم راح ينادي: عالمكسر يا بطيخ.

عندما دخلت المنزل، رميت البطيخة في صفيحة القمامة، درءا لحوار طويل قادم.. وفي الغرفة كانت زوجتي تجلس تحت النافذة مع نفس الابتسامة الباردة، فسارعت أتصفح كتابا ودمدمت: البطيخ سيئ.

■■

المحتوى

1/ هل أنت بخير؟؟ 6
2/ ابن حرام 8
3/ انترنت 9
4/ الوفاة 15
5/ الكامل 21
6/ مجموعة ق ق ج 26
7/ حياة مواطن ـ ق ق ج 27
8/ اغتيال خائن 29
9/ الاختيار 33
10/ الاحفاد 36
11/ اللائحة السوداء 40
12/ البريق 47
13/ استمرار الهروب 49
14/ الكنز 55
15/ على المكسر يا بطيخ 63